

د. أحمد حمدى محمود

الحضارة



كتابك (١٥)

رئيس التحرير : أنيس منصور

د. أحمد حمدي محمود

الحضارة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أستاذى وصديق الدكتور حسين فوزى :

خير من تعمق فى الحضارة وكتب عنها فى لغتنا العربية

الفصل الأول

الحضارة والمدنية والثقافة

١ – معنى الحضارة قديماً وحديثاً .

٢ – المدنية .

٣ – الثقافة .

١ – نحن معذورون عندما نسيء فهم معنى الحضارة ، فلقد نقلناه عن أمم ما زالت مختلفة فى تصورها له : وبمعنى أصح فى تصورها للكلمتين الدالتين على معنى الحضارة ، وبالرغم من ضيق المقام فى هذه الصفحات فإننى أستأذن القارئ فى تخصيص قليل منها للتحدث عن تاريخ الكلمة فى اللغات الأجنبية ، وأستأذنه أيضاً فى الاشتراك معى فى اختيار تعريف مناسب من بين التعاريف المائة والواحد والستين تعريفا التى جمعها العالم الإنثروبولوجى الألمانى الأمريكى ألفريد كروبر (١٨٧٦–١٩٦٠) .

وكلمة حضارة العربية ترجمة موفقة للكلمة الفرنسية Civilization التى عرفناها قبل أن نعرف مرادفاتها فى اللغات الأجنبية الأخرى . ويقول « المعجم الوسيط » : إن الحضارة أو الحِضارة

تعنى الإقامة فى الحضر ، والحاضرة هى المدينة التى يقيم فيها رجال الحكومة . وهذه الكلمة لا تختلف كثيراً وكلمة أخرى نحاول أحياناً أن نتصورها مغايرة فى المعنى لكلمة «حضارة» . هذه الكلمة هى «مدنية» فالمدنية تبعا للمعجم الوسيط أيضا تعنى الحضارة واتساع العمران ، وكلمة «تمدن» تعنى عاش حياة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة .

وفى نفس الوقت الذى ترجمنا فيه كلمة Civilization إلى كلمة حضارة ، فإننا اتبعنا أيضا التصور الفرنسى عند ترجمتنا لكلمة Culture . فقد ترجمناها إلى كلمة «ثقافة» من كلمة ثقف فلان صار حاذقا فطنا . والثقافة بمعنى العلوم والمعارف والفنون التى يطلب الحذق فيها.هذا المعنى قصده فولتير بال moeurs et esprit ، وقصده أيضاً فوفنارج عندما تحدث عن حالة صقل العقل والذوق والفكر ، وعندما تحدث عن المعارف الفنية والعلمية والفلسفية القابلة للتعلم .

ولو أن مفهوم كلمتى «حضارة» وثقافة ظل بلا تغير ، أى ظل على حاله فى النصف الأول من القرن التاسع عشر – لهان الأمر ، وما كنا بحاجة إلى أى مراجعة لهاتين الكلمتين اللتين احتدم الخلاف حولها ، وبخاصة بعد أن تدخل علم الإنثروبولوجيا أو «علم الإنسان» الذى كان علما حديث العهد أسسه جوستاف كليم Klemm (١٨٠٢ – ١٨٦٧) فى ألمانيا فى منتصف القرن التاسع عشر ؛ فقد اهتم هذا العالم بكلمة culture التى اعتدنا أن نترجمها «ثقافة» ، وأبقى جانبا ضئيلا

من مفهومها السابق الدال على زيادة الصقل والارتقاء ، وجعلها تدل أيضاً على الظـــواهر الاجتماعية عنـد أى جماعة من مهارات سلوكية ودين وفن وعلم وأنظمة للسلام والحرب ، وقد تأثر فى هذا الاستعمال باستعمال سابق عابر جاء به الشاعر المؤرخ الألمانى هورد (١٧٤٤–١٨٠٣) .

وربما قيل : إن علم الإنثروبولوجيا قد أقحم نفسه فى مشكلة كبيرة بلا مبرر ، فهذه المسائل يدرسها علماء الاجتماع الفرنسيون تحت عنوان (الظواهر الاجتماعية) faits sociaux ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الازدواج وتكرار البحث ، ولكن علماء الإنثروبولوجيا الذين كثروا بعد ذلك فى ألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة ردوا على هذا بأن المجتمع الواحد قد يتبع عدة حضارات (وهى الترجمة التى نفضلها فى هذا المقام لكلمة culture) ، وهناك مجتمعات كثيرة تتبع حضارة واحدة و« الحضارة » أنسب فى تفسير سلوك الإنسان من الرجوع إلى البيئة الجغرافية أو الجنس ، فقد أوحى هذان العاملان الثابتان (البيئة والجنس) بوجود عنصر ثابت لا يتغير له أثر حتمى على السلوك الإنسانى ، فكان بعض المفسرين يرجعون اختلاف السلوك إلى اختلاف الجو أو إلى خصب الأرض وجدبها ، ونسوا أن الإنسان قد نجح فى إبطال مفعول هذه البيئة الطبيعية اعتماداً على الإضافات التى خلقها بنفسه فى شتى نواحى الحياة ، والتى تمثل أسلوب الحياة عند أى جماعة إنسانية ، وفى مقدمتها اللغة والقيم

الأخلاقية والجمالية والدينية . هذه المقومات الحضارية أنفع من « البيئة » أو « الجنس » فى تفسير السلوك الإنسانى .

ولا يجوز اعتبارها ظواهر اجتماعية أو نفسية فحسب لسبب آخر ، لأنها لا تشتمل على العلاقات الاجتماعية العادية بين الأفراد ، أو الغرائز ، أو الأفعال المنعكسة والخصائص البيولوجية البشرية ، ولكنها تضم أيضاً علاقات الإنسان بخالقه وتصوراته للغيب ، والأساطير التى ابتكرها للتعبير عن أمانيه ومخاوفه . وهذه الظواهر الحضارية التى تغمرنا أشبه بالهواء الذى نستنشقه ؛ فقد ولدنا فيها ، واستجابتنا للمواقف المختلفة متأثرة بها ، ولا نشعر بهذه المؤثرات الحضارية إلا عندما نصادف حضارات مختلفة عن حضارتنا : كحضارة البدائيين مثلا ؛ ومن هنا يصح القول بأن الكائنات الإنسانية تتميز على الكائنات الأخرى بقدرتها على خلق الحضارة ودعمها ؛ فلكل جماعة إنسانية حضارتها المميزة التى خلقتها ، وانتقلت من جيل لآخر . وينظر كل فرد إلى مقومات الحضارة نظرة تقديس ، ويعاقب كل من يخالف أنماطها السلوكية عقاباً صارماً . وإن كانت المجتمعات لا تنظر إلى مخالفات القيم الحضارية نظرة واحدة : فهناك هرم للمحرمات : أعلاها المحرمات المطلقة التى لا يتسامح فيها المجتمع مثل سفاح القربى ، وأدناها إلزاماً المحرمات التى لا يتأثر بها المجتمع كثيراً أو قليلاً كارتداء رباط العنق فى حضارتنا المعاصرة .

ولا تفرض القيم الحضارية عشوائيا ؛ فهى مرتبطة فى كثير من

الأحيان باختلاف الجنس والسن ، فهناك قيم للرجال وأخرى للنساء ، وقيم للكبار وأخرى للأطفال . ونحن إذا حرمنا مجموعة من الأطفال من رعاية البالغين ، وإذا افترضنا أنهم سيقدرون على العيش – فإن علينا ألا نتوقع ظهور أى سمات لديهم من سمات السلوك التى تميز بها الآباء ؛ فهم سيحرمون من اللغة ، ومن الأدوات والمعدات التى ورثها آباؤهم عن أسلافهم ، ومن الفنون ونظام الدولة ، وكل المميزات التى تميز الإنسان عن باقى الكائنات : فهم سيأكلون ، وقد يتزاوجون ، ويعرفون الهرب من القيظ والبرد ، وبعبارة أخرى سيقتصر سلوكهم على الأفعال الغريزية العشوائية : إنهم سيأكلون ، ولكن طريقتهم فى الأكل ، وما يأكلون ، ستخالف طريقتنا التى نعرفها بتأثير حضارتنا المتوارثة .

ولا يصح الرجوع إلى أى كائنات أخرى غير الإنسان لمعرفة أصل الحضارة ؛ كما يحدث أحيانا فى دراسات النفس والمجتمع ؛ لأن الحضارة ميزة إنسانية تمتع بها الإنسان بفضل مرونة جهازه العصبى وتعقده الذى خلق لديه قدرة على الاستدلال والاستنتاج ، وخلق له ذاكرة قادرة على الاحتفاظ بشتى التفاصيل ، وعلى استخدام رموز شفوية هى اللغة . . . هنا يجب ألا نخلط بين خلق الحضارة والقدرة على حل المشكلات التى نسبها علماء النفس إلى كائنات راقية مثل الشمبانزى التى تعجز عن بلوغ المراحل العليا من السلوك الإنسانى بسبب قصور ذاكرتها ، فما لم يقم أسيادها بتوجيهها توجيها متواصلا فإنها تنسى كل ما اكتسبته .هذه

الكائنات عاجزة عن خلق لغة بالمعنى الصحيح ،واللغة كما نعلم هى الأساس الأول لقيام حضارة . نعم إننا نستطيع أن نكتشف أساسا فطريا يشترك فيه الإنسان وباقى الكائنات ، ولكن هذا الأساس يخضع خضوعا كاملا للحضارة السائدة ؛ لأننا لا نعرف جماعة إنسانية بلا حضارة ؛ فالمجتمع الإنسانى شيء أكثر من مجرد تجمع يعبر عن سلوك فطرى أو غريزى : وبعبارة أخرى : المجتمع البشرى جماعة من البشر + حضارة . والحضارة تضع بصماتها على سلوك كل فرد.، وإن كان هذا لا يعنى أن الحضارة تقضى على مميزات الأفراد ، وكأنها تدرك أنها من صنع الأخيار من هؤلاء الأفراد .

ولكن كم هى شاقة مثل هذه الدراسات ، لأنها لا تتعامل هى ووثائق تاريخية كتبها إنسان يقاربنا فى نوعية حضارته ، ولكنها تستنبط من مخلفات صماء ، ولا تزيد معرفتنا فى هذا المجال عن مجرد التخمينات ! ومن أمثلتها عدد الحضارات التى عرفها البشر : فبعض يقول : إن كل الحضارات قد انحدرت من حضارة واحدة ، وبعض ثان يرفض هذا الزعم ، ويرتضى الزعم الآخر أن الحضارات الإنسانية قابلة للحصر وأنها تتمتع ببعض الاتصال والاستمرار ؛ والمؤرخون وعلماء الاجتماع والمفكرون يختلفون أيضاً فى تحديد عدد الحضارات ، فمنهم من اكتفى بأربع حضارات أو بإحدى وعشرين حضارة . . . وفى اللوحة المقابلة لهذه الصفحة ما يقال : إنه أقرب تصنيفات الحضارة إلى الموضوعية .

أقرب تصنيف موضوعي للحضارات التاريخية العليا

	الذروة	الصين	الهند	بابل	الشرق الأدنى وعلى رأسه الحضارة العربية	مصر	الكلاسيكية أو الهيلينية (اليونانية الرومانية)	الحضارة الغربية	أمريكا الوسطى	بيرو	الغربي
٣٠٠٠ ق.م											
٢٠٠٠ ق.م											
١٠٠٠ ق.م											
٠											
١٠٠٠م											
١٩٥٠م											

ولكن أغرب ما صادفني من تفسير تاريخي للحضارة هو التفسير الذى جاء به الأديب والناقد الفني الإنجليزى « كلايف بل » الذى اكتفى بثلاث حضارات : (الهيلينية أو اليونانية ، وعصر النهضة ، والتنوير) وكان المقياس الذى استند إليه عجيباً ؛ لأنه ذكر لنا أنه يعترف فقط بالحضارات التى يتقن لغتها ، وهكذا اختفت من تصنيفه حضارات مصر وآشوريا وفارس والهند .

وبوجه عام ، إذا تركنا جانباً هذه التصنيفات التاريخية التى لا تنتهى – فإننا بفضل علمين ازدهرا فى القرن التاسع عشر هما التاريخ والإنثروبولوجيا أصبحنا على علم أفضل بالحضارات البدائية ، ويكفينا كدليل على ابتعاد نظرتنا عن الترمت والتعالى على البدائيين أننا ارتضينا أن ننسب الحضارة إلى هؤلاء البدائيين . وبعد أن درسنا منجزاتهم اعترفنا بأننا مدينون لهم بالفضل فى الكثير من البدايات الحضارية التى عرفوها قبلنا بأمد طويل . وهكذا صححنا تصورنا الخاطىء ، بأن الحضارة الغربية الحديثة هى أسمى الحضارات بلا قيد وشرط ؛ فالإنسان البدائى مثلنا لا يتعلم – كما نتوهم – من المحاكاة وحدها أو من التجربة الفردية ، ولكنه يتعلم من التجارب التى انتقلت إلى جيله الحاضر من مئات الأجيال السابقة .

فكل القبائل البدائية قد عرفت كيف تصنع الخزف ، وابتكرت مصايد وشباكاً لصيد الأسماك ، وصنعت الآلات الموسيقية لإمتاع

آذانها ، وزينت الأشياء حتى تزيدها جمالاً وبهاء . . . وكل أجناس البشر لم تكتف بعالمها المرئى المسموع ، بل ساقها خيالها بعيداً إلى عالم الأرواح والآلهة التى تستنجدبها فى محنها ، واليوم لم نعد ننظر بازدراء إلى حضارة العصر الحجرى ، ويكفيها فخراً أنها عرفت كيف تسخر النار لأغراضها ، ولا أحد يعرف كيف جاء هذا الإلهام ، أو الإلهام الآخر للانتفاع بقوة البخار الناجم عن غليان الماء ؛ إذ كيف عرف الإنسان فى هذه الحقبة الانتفاع باكتشافه فى طهو الطعام وحفظه . فإذا انتقلنا إلى ابتكار ثالث عرفته كل الحضارات وهو اختراع اللغة أيقنا مدى النفع الذى عادت به اللغة على السلوك الإنسانى ، وكم كان الإنسان عبقرياً عندما عرف التحكم فى عضلات أجهزة النطق ، وابتكر رموزاً شفوية تعبر عن الاختلافات الدقيقة فى النطق ، ثم رتب هذه الرموز بطريقة موضوعية لنقلها من السلف إلى الخلف حتى أصبحنا الآن لا نصادف قبيلة بدائية لا تملك لغة معقدة ومفردات تدل على أدق المعانى !

إن ما نجهله عن حضارة العصر الحجرى أعظم بكثير مما وقع فى أيدينا من هذه الأدوات من مخلفات هذا العصر الهام : فنحن لا نعرف أنظمته الاجتماعية وقوانين زواجـــه ودينه وتراثه الشعبى . وقـد يُظن أن الضرورة هى التى ساقت الإنسان إلى الاختراع ؛ ولكن الضرورة تتنافر هى وحرية الإنسان وحيويته ؛ ولذا فإننا لا نعجب عندما نعرف أن الإنسان قد ابتكر العجلة فى أوربا وآسيا خلال العصر البرنزى ، ثم

استعملها كبكرة لرفع الأثقال ، ولكنها لم تعرف فى الأمريكتين حتى جاء كولومبس . ولم تعرف حتى فى بيرو ذات الحضارة العريقة التى شيدت معابد من أحجار ثقيلة بعضها يزيد وزنه على عشرة أطنان ، ونقلت هذه الأحجار دون اعتماد على العجلة !

وابتكار « الصفر » فى الرياضيات قد يبدو فى نظرنا اختراعاً هيناً ، فلم يعرفه اليونانيون والرومانيون ، ولكنا إذا تمعنا فيه فسنراه اختراعاً عبقرياً ساعد على الإقلال من رموز الأعداد . ومن الأدلة التاريخية عرفنا أن أول من ابتكره هم هنود المايا بهندوراس جنوب جواتيمالا بأمريكا الجنوبية ، ونقل الاختراع إلى الهند بعد خمسة قرون ، ثم انتقل إلى العرب الذين عرفوه لأوربا .

فالحضارات التى ندعوها بالعليا مدينة بالفضل فى أشياء جوهرية للحضارات التى نسميها بدائية . ويوم يماط اللثام عن كل ما هو مجهول من تاريخ الحضارات البدائية سيتبين لنا مدى دَيْن الإنسان العصرى الحديث لحضارات كنا نزدريها حتى عهد قريب ، مع تشبثنا بالكثير من معتقداتنا الجامدة وأهوائنا مما صعب التفاعل بين الحضارات . وعلى سبيل المثال لا الحصر : نذكر مثلاً معروفاً هو تمسك الإنجليز بنظامهم العتيق فى الموازين والنقود والمكاييل والمقاييس حتى عهد قريب ، وكان المفروض أن ينقلوا عن جيرانهم النظام العشرى ، ولكن تاريخ الحضارة ليس منطقياً ، ومن العسير الاعتماد فى فهمه على الاستدلال والاستنباط ؛ لأن

أبسط الأشياء قد ظل خافياً حتى عندما دعت الضرورة المنطقية إليه . وكما تعتز الحضارات العليا بتراثها الحضارى – فإن الكثير من القبائل البدائية تتشبث بنظمها الحضارية وتعرب عن زهدها فى حضارة البيض ، ولا تسلم بمفاخر هذه الحضارات العليا أو بأنها جاءت بأفضل الحلول لمشكلات الحياة . وقد حدث الكثير من الأحداث المؤسفة فى صراع الحضارات : ومن أشهرها محاولة البيض فرض نزعاتهم وقيمهم الحضارية على الهنود الحمر بلا مبرر . ولم تدرس عادات هؤلاء الهنود الحمر إلا بعد فوات الأوان ، واتضح أنها غنية فى معتقداتها ومبتكراتها .

إننا عندما نتأمل تاريخ الحضارات نعرف أن مفخرة من مفاخرها هى أبجدية الكتابة : فهل نعرف أنها من صنع الحضارات السامية ، ثم نقلها الفينيقيون إلى اليونان والرومان واستغرق هذا الإجراء قروناً طويلة ؟ وفكرة العقود فى العمارة عرفها أهل بابل قبل المسيحية بثلاثة آلاف سنة ، ولم يعرفها اليونانيون ! والأمر بالمثل فيما يتعلق بالأطعمة ؛ فلها تاريخ طويل يبين أن الحضارات البدائية قد ذاقت ما لذ وطاب قبل أن يعرف الأوربيون تذوق الأطعمة ! واليوم يقارن بين الحضارات الصناعية والحضارات الزراعية ، ويقال : إن التركيز على الزراعة وإغفال الصناعة من علامات التخلف ، وينسى أصحاب مثل هذه المعتقدات أن ظهور الزراعة كان مفخرة للإنسان الذى استطاع اكتشاف بذور وحشية فى الطبيعة وأعاد زراعتها وتعهدها بالرعاية فأنبتت نبتاً حسناً وثماراً طيبة

المذاق مختلفة عن الثمار الوحشية ؛ ومن هنا تغيرت نظرة الإنسان للطبيعة ، ولم يعد ينظر إليها نظرة العبد إلى السيد ، واتجه إلى تسخيرها لأغراضه ، وإلى إعادة تشكيلها ، وهكذا بدأت الحضارة ، وقد وفقت اللغات الأوربية عندما اختارت كلمة Culture بمعنى « الفلاحة » مرادفة لمعنى الحضارة باعتبار أن الخطوات التى اتبعت فى الفلاحة هى نفس الخطوات التى تتبع فى صنع الحضارة .

٢ – ولكن علماء الغرب لم يتفقوا على اعتبار كلمة Culture وحدها مرادفة للحضارة ؛ فهناك كلمة أخرى هى Civilization المأخوذة من أصل مختلف ؛ لأنها تركز على الدماثة والخصال الاجتماعية المستحبة التى ظهرت بظهور المدن . واتباعاً لهذا التعريف لا تصلح كلمة «حضارة» التى تنسب إلى حياة المدن أو الحضر للتعبير عن خصائص ما سميناه بالحضارات البدائية . ونصادف فى هذه المشكلة ثلاثة آراء :

الرأى الإنجليزى وينسب كلمة Civilization إلى الحضارات العليا وحدها . أما الحضارات البدائية فقد ترك لها كلمة culture ، وأحياناً تطلق كلمة Culture على الحضارات فى كل مستوياتها وأنواعها ، وتطلق كلمة Civilization على الحضارات العليا من قبيل التخصيص .

أما عند الألمان والأمريكان فإنهم يستعملون كلمة Kultur الألمانية و Culture الإنجليزية للدلالة على الحضارة بالمعنى الذى فهمناه . وتستعمل كلمة Civilization للدلالة على الجوانب المادية

أو التكنولوجية في الحضارة ، وغالباً ما يستعمل الألمان كلمة Civilization من قبيل الانتقاص أو للدلالة على أن الحضارة فى طريقها إلى الاحتضار أو الإفلاس .

وأخيراً يجيء دور الفرنسيين الذين يستعملون كلمة Civilization للدلالة على الحضارة فى كل مستوياتها بنفس المعنى الذى يقصده الألمان بـ Kultur ، أما Culture فتعنى كلمة ثقافة بالمعنى الشائع عندنا فى العربية .

وفى اعتقادى أنه لا داعى لأن ننقل الاضطراب الذى صادفته الكلمتان الإفرنجيتان إلى لغتنا العربية ؛ فمن واجبنا أن نكتفى بكلمة حضارة كترجمة للكلمتين Culture ، وCivilization ، ولنتجنب الاتجاه الذى يحدث أحياناً فى بعض الكتب العربية لعلم الاجتماع وعلم الإنثروبولوجيا . عندما تترجم كلمة Culture إلى ثقافة . فيقال ثقافة الإسكيمو أوثقافة التروبيراند ؛ لأن المعنى فى هذه الحالة يبتعد ابتعاداً كبيراً عما يقصده هذان العلمان : لأن الثقافة – كما سنرى – ليست عملاً جماعياً ، أو شيئاً نرثه من الأسلاف ، ولكنها جهود دالة على الوعى والاجتهاد الشخصى ومن المقومات التى تفرق شخصية من أخرى .

ولننتقل بعد هذا إلى الكلام عن الحضارة فى صورتها اللامادية وصورتها المادية ، وهى التفرقة الشائعة عند الألمان أو الأمريكان بين كلمتى Culture و Civilization ، ولا بأس من اختيار كلمتى « حضارة »

و « مدنية » كترجمة عربية للكلمتين وإن كانت الكلمتان – كما ذكرنا – تعنيان نفس الشيء ومع هذا ، ولسهولة العرض ، وحتى نهتدى إلى كلمة أفضل من كلمة « مدنية » فإننا سنستعمل كلمة حضارة للدلالة على الجانب الروحى فى الحضارة ، والأخرى للتعبير عن الجانب المادى أو التكنولوجى منها .

وكل أفعال الإنسان ومبتكراته ومعداته وأدواته تتبع جانباً من هذين الجانبين : فإذا بدأنا الكلام بالحضارة المادية أو (المدنية) فسنرى أن الأدوات المختلفة كالآلة الكاتبة والقاطرة والبنك والمصنع ونظام النقد تتبع عالم المدنية ، وترمى هذه الأشياء إلى المنفعة ونحن لا نبتغيها ؛ لأن وجودها فى ذاته يشبع رغبة لدينا ، وإنما نريدها باعتبارها وسيلة لتحقيق غاية أبعد . ويقسم عالم الاجتماع ماكيفر الناحية التقنية فى المدينة إلى تقنية أساسية وأخرى اجتماعية :

والتقنية الأساسية تختص بسيطرة الإنسان على الظواهر الطبيعية ، وتمثل عالم الهندسة ، والصناعة ومجالات تطبيق قوانين الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء لخدمة الغايات الإنسانية ، وتتحكم فى عمليات الإنتاج فى الصناعة والزراعة والصناعات الاستخلاصية ، ومن ثمار هذه التقنية إنشاء الطيارات والبواخر والأسلحة والجرارات والمصاعد ، وعدد لا حصر له من المعدات والأدوات : فهى التى تشكل الأشياء من مختلف الأحجام ، وتجمعها ، وهى التى شادت ناطحات السحاب والأفراد ،

وخططت المدن العصرية بحدائقها الغناء ، وأحدث صيحة فى قبعات السيدات .

أما التقنية الاجتماعية فتشتمل على التقنيات التى تتبع لتنظيم سلوك البشر وتنقسم قسمين رئيسين : التقنية الاقتصادية ، وتختص بالعمليات الاقتصادية ، والعلاقات المباشرة بين الأفراد لتحقيق الغايات الاقتصادية ؛ والتقنية السياسية ولها مجال واسع من العلاقات البشرية .

فإذا انتقلنا إلى الحضارة فسنرى أنها تتمثل فى لوحات الفن والأشعار والتمثيليات والأفلام السينمائية والفلسفة والعقائد والكاتدرائيات – كل هذه الأشياء نريدها فى ذاتها ، لأنها تزودنا مباشرة بأشياء نشتهيها أو نفكر فيها أو نحتاج إليها ؛ ومن هنا تخالف الأدوات النفعية التى تتبع المدنية ، فإنها جميعاً تتجاوب هى وضرورات بداخلنا ، وليست خارجها ؛ فهى تنتمى إلى عالم الحضارة بقيمه وأساليبه ووجدانياته وخاطراته الفكرية .

من هذا العرض نتبين أن الحضارة مباينة للمدنية : فهى تعبر عن نفسها فى طبيعتنا وأساليب عيشتنا وتفكيرنا ولقاءاتنا اليومية فى الفن والأدب والدين وجوانب متعتنا . وللأشياء فى الأغلب جانبان : أحدهما حضارى والآخر مدنى ، ومعيار التفرقة بينهما هورد التساؤل : هل نريد هذه الأشياء فى ذاتها ، أو نريدها لبلوغ غاية أبعد ؟ وما مبرر وجودها من الحاجة الخارجية ، أو أننا نبتغيها لإشباع ضرورة داخلية ؟ وكثيراً ما ننسب إلى الأشياء النفعية طابعاً حضارياً كأن نبنى بنوكنا فى صورة تنافس

المعابد ، ولكن هذا العنصر الخارجى يجب ألا يخدعنا أو يخفى المبرر الأصلى لبناء البنك . فهو لم يقصد به الجانب الفنى أو الجمالى ، ولكن المقصود منه هو العمليات النفعية التى يحققها .

ويذكر ماكيفر الفروق الأساسية التى يتميز بها عالم الحضارة على عالم المدنية ، ويقول : إن للمدنية معايير دقيقة تقيس كل ما ينتمى إليها ، أما عالم الحضارة فيتمرد على مثل هذه المقاييس والمعايير : فنحن فى عالم المدنية نستطيع أن نفرق تفرقة مؤكدة بين الغث والسمين والأفضل والأسوأ : باعتبار هذه الأشياء وسائل لغايات يمكن قياس درجة كفايتها والتيقن من نجاحها فى أداء مهمتها ؛ فلا أحد يختلف فى الحكم على الجرار بالأفضلية على المحراث ، أو أفضلية نظام النقد الحديث على نظام المقايضة البدائى ، أو تفوق المدفع على المنجنيق !

وعندما نختلف حول نظام الإدارة العلمية أو السياسات الاشتراكية فإن هذا لا يرجع إلى صعوبة قياس كفاية هذه الأنظمة فى تحقيق غايتها ، ولكنه يرجع إلى قيمة هذه الأنظمة للفرد أو الحياة : والمسألة الأولى — ولا اختلاف فيها — تتبع المدنية . أما المسألة الأخرى فمسألة وجدانية وتتبع عالم الحضارة بقيمه التى لا وجود لمعايير موضوعية لقياسها ؛ ومن هنا جاء اختلاف العصور والجماعات الإنسانية فى أحكامها . وإذا لجأنا إلى الثقات كان هذا من قبيل العجز ليس إلا ؛ فإذا زعم برناردشو أنه أقدر من شكسبير فلا أحد يستطيع أن يبرهن

أو ينفى مزاعمه ، فمكونات عالم الحضارة إذن تفتقد إلى اليقين الذى نستطيع الاهتداء إليه فى سهولة ويسر فى عالم المدنية :

، الاختلاف الثانى هو أن المدنية فى تقدم مستمر ؛ والحضارة ليست كذلك : فالمدنية لا تتوقف عن التقدم ما دامت لا تصطدم هى ومعوقات يضعها المجتمع فى طريقها ؛ ومنجزات المدنية دائمة الارتقاء إلى أن يظهر اختراع أفضل يدفعنا إلى الاستغناء عنها . وأحياناً ينسى الاختراع بتأثير كارثة أو لضياع الأدلة التاريخية : فنحن لا نعرف على وجه الدقة طريقة نقل الأحجار لصنع الهرم الأكبر أو إنشاء الطرق ومصارف المياه فى روما ، ولكن بعد أن تقدمت المحافظة على الوثائق التاريخية لم نعد نخشى ضياع أى وثيقة تاريخية عن منجزات المدنية . وعندما نراجع تاريخها يتبين كيف تقدمنا فى صناعة السيارات عن بداية هذا القرن ؟ أو كيف ارتقينا بوسائل إنتقالنا واتصالاتنا اللاسلكية ؟ ولكن هل نستطيع الزعم بحدوث نفس الشىء فى عالم حضارتنا ؟ هل تفوقنا فى الفلسفة على أفلاطون ؟ أو تفوقنا فى تأليف الدراما على اليونانى إسخيلوس ؟ هنا يصعب القول بأن عالم الحضارة يتقدم تقدماً ملحوظاً على نفس النحو الذى نصادفه فى عالم المدنية .

ثالثاً — لا يصادف تأثير المدنية معوقات كالتى يصادفها نقل الحضارة : فالشرط الأساسى لانتقال الحضارة هو التشابه فى العقلية بين الطرفين ، ولن نتوقع ممن يفتقر إلى موهبة الفنان تقدير الفن أو من

أصحاب الآذان غير المرهفة أن يعجبوا بموسيقات الحضارة ، أما المدنية فلا تعرف مثل هذه الصعوبات ، فنحن قادرون على الاستمتاع بمنجزاتها بغير قيد أو شرط : أى لا يلزم أن نملك نفس مواهب أصحابها ، كما أن نظام الخلق والابتكار يختلف فى عالم الحضارة عن عالم المدنية ؛ فقد استطاع بعض صغار الحرفيين إصلاح أدوات ومعدات من اختراع كبار العلماء ، على حين عجز صغار الشعراء عن الإضافة إلى أى بيت شعرى جادت به قريحة أحد عظماء الشعراء ؟ وما نستطيع أن نحصل عليه من حضارتنا أو حضارة عشيرتنا يتوقف على شخصيتنا وتكويننا العقلى والروحى . أما منجزات المدنية فرهن إشارتنا ، وبوسعنا أن نستعملها دون عناء وبغير حاجة إلى موهبة أو قدرة .

المدنية والتقنيات تستعار بلا تغيير ، ودون أن تمس ، والأمر ليس كذلك فى الحضارة ، فنادراً ما انتقلت عناصر الحضارة من نطاق إلى آخر وبقيت على حالها . وإذا توافرت سبل النقل والاتصال فلن يتعذر نقل كل المستحدثات التى تطرأ على معدات المدنية . ولم تعد المجتمعات الفطرية تتمسك بأدواتها ومعداتها التقليدية ؛ فلقد طرحت جانباً أقواسها ونبالها ورماحها ، واستعاضت عنها بالبندقية والرشاشات ، وحلت المصانع الكبيرة محل أكواخ الحرفيين . ومن السهل العثور على الحجج لإقناع الآخرين باتباع مبتكرات المدنية ؛ فلا أحد الآن يتمسك بالعقاقير البدائية عندما يرى النتائج الباهرة التى حققها العلاج الطبى الحديث .

وعادة لا تحدث مقاومة ضد تقدم المدنية إلا إذا ارتبطت المعدات والأدوات برباط وثيق بناحية حضارية ؛ إذ تتمسك الشعوب بحضارتها ؛ لأنها تشعر أن كيانها وجوهرها مرتبط بمقومات هذه الحضارة . ولا شك أن انتشار معدات المدينة لم يقض على الفروق الحضارية ، وتخضع الاستعارات الحضارية – كما ذكرنا – لعامل هام هو التشابه العقلى بين المنتمين إلى الحضارتين ، أو تتعرض للتكييف ، وربما للتشويه والمسخ حتى تتناسب الحضارة الناقلة : وأوضح مثال لهذا التكييف والمسخ ما تعرضت له الأديان عندما نقلتها البعثات التبشيرية إلى حضارات مختلفة عن الحضارة التى ظهرت فيها الأديان فى الأصل . وثمة اختلاف يجب أن ننبه إليه : فنحن ننقل عادة الأحداث فى أدوات المدنية ، ولكننا ننتقى ما يناسبنا حضارياً بغير مراعاو لحداثته ؛ فقد دفعنا التجانس الحضارى إلى قبول أساطير اليونان أو أساطير الشمال الجرمانية أو فن فلورنسا السابق للمصور الإيطالى رافاييل . . . وهكذا يتبين أن المدينة تتبع فى انتقالها سبلاً مختلفة عن السبل التى تتبعها الحضارة ، فانتقال المدنية أسرع وأبسط ولا يتقيد بتشابه عقلى أو حضارى : فالناس يتبادلون السلع التجارية دون مبالاة بأصلها وفصلها .

لقد دققنا فى تحديد الاختلاف بين « الحضارة » و « المدنية » ؛ لأن الكثير من الدول تعتقد أنها قد أصبحت تتبع الحضارة الحديثة لمجرد أنها نقلت بعض الأدوات والتقنيات ، وقلما تعرف خلفية هذه الأدوات

والمعدات ! وكثيراً ما تتوهم أنها وصلت لنفس درجة تقدم الحضارات العليا عندما تشيد ناطحات سحاب أو تستورد أحدث طراز من السيارات أو الطيارات . ولا تدرى أن هذه المعدات تدل على شيء واحد هو التقدم التقنى الذى لم يظهر عفواً عند الحضارة صاحبة الاختراع ، ولكن هذه المعدات تستند إلى أسس حضارية لاشك فيها . هذا التقدم التقنى هو الذى يسر نقل المعدات أو الأدوات وبسط من طريقة استعمالها إلى حد توهم «الزبائن» أنهم قد بلغوا نفس مستوى الحضارة التى ابتكرت هذه المعدات .

بينا الاختلاف بين «الحضارة» و«المدنية» وكأنهما يوجدان منفصلين ، ولكن الحقيقة تبين أنهما لا يوجدان على هذا الحال اطلاقاً : فالناس لا يعنون عند صنع أدواتهم بالاكتفاء بجانبها التقنى وإلا فما معنى الزخارف التى يزينون بها هذه الأدوات ؟ وما قلناه عن الأدوات ينطبق أيضاً على الأنظمة الدستورية أو الاجتماعية : فالقانون لا يوضع لأغراض الإدارة فحسب ولكنه يعبر أيضاً عن روح الشعب ؛ ومن هنا يعتز به فى ذاته ؛ لأنه استطاع أن يجسم معانى نابعة من الوجدان . ولعل اختلاف الجانب التقنى عن الجانب الحضارى هو الذى يفسر سر مقاومة التغير والنزعات المحافظة : فالناس برغم اقتناعهم بعيوب أنظمتهم يرون أن تقاليدهم الموروثة التى وضعها أسلافهم لها قداسة خاصة بفعل الزمان ؛ وهذا يصعب التفاتهم إلى أى انتقادات بناءة يقصد بها التعديل لمصلحتهم !

خاصة بفعل الزمان ؛ وهذا يصعب التفاتهم إلى أى انتقادات بناءة يقصد بها التعديل والتحوير لمصلحتهم !

والجوانب الحضارية قد استطاعت أن تسخر الجوانب التقنية لمصلحتها ؛ وبذلك أثبتت أن الحضارة نسق لا ينفصل فيه الجانب الروحى عن الجانب المادى ، أو التكنولوجى أو جانب المدنية كما سميناه الذى يعد : أولاً أداة للحضارة ، وثانياً عاملاً يحدد صورتها ، وثالثاً جانباً مادياً يمثل بيئة الحضارة التى تتكيف معها .

ومن ناحية العامل الأول ، نضرب مثلاً بتأثر الأدب بصناعة الطباعة ؛ فلولاها ما ظهرت أمهات القصص وما شاعت عادة القراءة . وكان لارتقاء أساليب النقل والاتصال أثر مماثل على نشر الفكر والمعرفة ؛ وبذلك أدت المدنية أعظم الخدمات للحضارة .

ومن ناحية العامل الثانى يقال : إن تقدم التكنولوجيا قد يسّر لنا فراغ الاستمتاع بالحضارة ، وإن كان كثيرون لا يقرون ما يقال من أن الحضارة من صنع وقت الفراغ ؛ فقد ظهرت فى اليونان ، على حين تيسر هذا الفراغ عند الرومان الذين كانوا عباقرة فى نواحى المدنية ، ولكنهم أمضوا هذا الفراغ فى نواح أخرى ؛ ولذا نشهد فيرجيل متفاخراً بأن الشعوب الأخرى قد تتفوق على الرومان فى فنون النحت والخطابة والفلك ، أما الرومان فمهمتهم هى الفن العملى للحكم . ولعل فيرجيل كان يتباهى بأن القوة الحقيقية مستمدة من الجوانب النفعية من اقتصادية وتكنولوجية

وسياسية ؛ فهى التى تتحكم فى الأنشطة الحضارية ، ويوسعها أن تؤازرها أو تعمقها .

المدنية ليست مجرد عامل ثانوى ؛ فلا ننسى أن عصر الآلة قد خلق عادات جديدة وفلسفات وأخلاقيات جديدة ، وقد حثتنا التلسكوب على مراجعة كل معتقداتنا عن الكون ودفعنا الميكروسكوب إلى مراجعة معتقداتنا عن طبيعة الحياة ، وتأثر ديننا وسلوكنا تأثراً كبيراً بهذين الأختراعين ، ولكن الطرف الآخر يرد بأن أثر الحضارة ربما كان أعظم ؛ لأنها تمثل الحكم الأخير ، والناس يفسرون العالم برمته بما فى ذلك أدواتهم ومعداتهم وسلطانهم السياسى على ضوء هذه الأحكام ؛ فلكل عصر وشعب نظرته للأشياء . وبوجه عام لا انفصال بين العنصرين الروحى والمادى فى الحضارة ، وغلبة عنصر على آخر يهدد بانهيار الحضارة ؛ فلابد من حدوث توازن بين العنصرين . ولعل الألمان قد غالوا فى التفرقة بين نوعى الحضارة الروحية والمادية ، واعتقدوا أن تفوق العنصر المادى أو التكنولوجى إنما هو سبب كل انحلال يصيب الحضارة ؛ ولكن الحقيقة هى أن أى خلل فى العلاقة بين العنصرين الضروريين هو الذى يضر المجتمع . على أن الألمان عندما نبهوا إلى ما يصيب الأخلاقيات عندما يطغى الجانب المادى أو التكنولوجى على الجانب الروحى قد أصابوا الحقيقة ؛ فكل ما يصيب أخلاقيات الحضارة يهدد بانحلالها لا محالة .

٣ – بقى أن نفرق بين الثقافة والحضارة . ونحن – لا – نقبل أن تعتبر كلمة « ثقافة » مرادفة لكلمة culture عندما يقصد بها حضارة البدائيين ، وإنما نقبل اعتبار كلمة Culture مرادفة للثقافة ، بمعنى اتساع المعرفة والوعى ، أو وجود نظرة إلى العالم أو نظرة جامعة Weltanschauung. كما يقول الألمان . وهذه النظرة ليست مجرد انعكاس للحضارة فى نفوسنا وعقولنا ؛ فهى تشتمل عند فيلهلم ديلتاى أول من نشر هذه الكلمة على نطاق واسع فى الفكر الألمانى على ثلاثة عناصر أساسية :

العنصر الأول – تصور عام لطبيعة عالم الوقائع ومضمونه .

والعنصر الثانى – وهو مستمد من العنصر الأول – نسق من المستحبات والممقوتات يعبر عنها فى أحكام تقويمية .

والعنصر الثالث – وهو مستمد أيضاً من العنصرين الأولين – نسق من الرغبات والغايات والواجبات والقواعد والمبادئ العملية .

ونحن نكتسب كل هذا فى نظرتنا إلى العالم أو نظرتنا الجامعة التى تضم معتقداتنا وعاداتنا ومشاعرنا وإرادتنا . وتختلف هذه النظرة من شخص لآخر : فقد تغلب ناحية المعرفة على نظرتنا ويقمع كل اهتمام بالشعور ، أو قد تطغى ناحية الشعور ، فيركز الفرد على ما فى العالم من جمال واتساق يتصورهما كمفتاح لطبيعته ومغزاها . وقد تغلب ناحية الإرادة فيرى العالم كمظهر لقدرة خلاقة ، ويتصور على أنه موجود ليكون مسرحاً للأفعال

الإنسانية . ونرى الحقيقة لا كمعرفة واضحة محددة المعالم ، بل كواجب أخلاقى يؤدّى بإخلاص وأمانة . ويرى الوجود الموضوعى كمجموعة من الأوضاع التى تفرض نفسها على الأفعال .

هذه هى النظرة إلى العالم التى ترادف ما درجنا على تسميته بالثقافة ، ونحن نسعى لتعميقها وتوسيعها حتى تمكننا من حل ما يسمى بألغاز الحياة . وربما لا يرضى بعض عن شرح ديلتاى ، ويراه غارقاً فى فلسفته الغامضة ؛ لذا سأذكر تعريفاً آخر جاء به المفكر الفنان آلبرت شفايتزر (١٨٧٥ – ١٩٦٥) الذى قال : إن النظرة إلى العالم أو النظرة الجامعة تدور حول تساؤلنا عن أهمية المجتمع الذى نحيا فيه ، وما أهميتى بالنسبة للعالم ؟ وما الذى نريد أن نفعله للعالم ؟ وما الذى نبتغيه منه وواجبنا نحوه ؟ فالثقافة هى جملة المعتقدات التى يهتدى إليها الفرد بتأملاته واطلاعاته عن الكون وطبيعته وغايته ومصير البشرية . وهذا يعنى أن علينا أن ننبه إلى الاختلاف بين الحضارة والثقافة : فالحضارة وتراثها أشياء نرثها ولا فضل لنا فيها ، وتنقل إلى وجداننا وعقولنا بطريقة لاشعورية فى الأغلب . اما الثقافة فمن صنعنا وهى التى تبرز اختلافنا كأفراد ؛ لذا فقلما تشابهت ثقافتان ولا يمكن أن تكون الثقافة لاشعورية ؛ لأنها لا تتحقق إلا باكتمال الشعور والوعى .

والثقافة لها دور هام وخطير : فهى التى خلقت الحضارة ؛ لأننا لا نصدق أن المجتمع هو الذى يخلق التراث الحضارى ، ولكنه يخلقه عن

طريق أفراد مميزين فيه كانوا على وعى بروح العصر وتوفرت لهم القدرة النظرية والإرادة العملية : فإذا قيل : إن الحضارة فى محنة فعلينا أن نشير بأصابع الاتهام إلى المثقفين ، لأن كل حضارة عرفتها البشرية قد اعتمدت على نظـرات جامعة وإرادة فردية هى التى خلقت روح الحضارة ، وهذه النظـرات الجامعة مختلفة عن كل معرفة جزئية أو تأمل قد ينتهى بالشك وبوضع نظرية يعجز الآخرون عن ترجمتها إلى سلوك عملى يشيد الحضارة أو يغيرها . ويبدأ هذا النوع العلمى من الفكر أو الثقافة عادة بقصد إصلاح الذات ولكنه ينتهى عند العباقرة بتغيير وجه المجتمع والحضارة .

الفصل الثانى

لمحات من نظريات تاريخ الحضارات

١ – الرد على نظريات التقدم .
٢ – إشبنجلر .
٣ – توينبى .
٤ – كروبر .

١ – ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر اتسع نطاق التاريخ شيئاً فشيئاً ؛ حتى أصبح يتضمن كل جوانب حياة البشر ، فلم يعد يقتصر على سيرة الحكومات أو الأحداث السياسية فى الماضى ؛ فسرعان ما اتجه المؤرخون إلى بحث العوامل الاقتصادية والمعتقدات السائدة فى العصر والجوانب المختلفة للعلم والفن والدين والفلسفة والأدب والقانون والأحوال المادية وحالة الشعب ، وهذا النوع من الكتابة التاريخية قد أصبح يدعى تاريخ الحضارة Kulturgeschichte ، وأول الكتب التى تنسب إليه هما كتاباً فولتير : لويس الرابع عشر و Essai sur les moeurs ، فمن أكبر فضائل فولتير إدراكه لقصور الكتابة

التاريخية المركزة على الناحية السياسية ؛ فقد ذكر أن التاريخ ما كان ينبغى أن يقتصر على رواية أخبار المعارك والدسائس والمؤامرات الدبلوماسية والسياسية ؛ فلابد أن يتناول الكيان الروحى والفكرى بأكمله ، فإلى جانب الأحداث السياسية عليه أن يصور تقدم الفكر والاتجاهات الأدبية والسلوك الأخلاقى . وازداد هذا الاتجاه عمقاً بفضل المؤرخ الألمانى إرهارت جوتهاين الذى بدأ مؤرخاً للاقتصاد ، وبين أنه من العسير الاعتماد على جانب واحد لفهم كيفية تطور الدولة ؛ فمن الواجب النظر فى العوامل الأخرى : مثل القانون والاقتصاد والدين والعلم والفن والأدب ؛ فكل فروع المعرفة المعنية بهذه المشكلات تدل على وجود وحدة أكبر ، لها كيان عضوى مشخص يتألف منها ما يسمى «بتاريخ الحضارة» .

وحدثت محاولات مشابهة فى إنجلترا بفضل بكل Buckle ، وليكى Lecky ، وفى فرنسا بفضل تين وسانت بيف ، وفى المانيا بفضل فرايتاج وريل ، ولكن كل المحاولات الآنفة الذكر تتضاءل أمام محاولات مؤرخ سويسرى عملاق هو ياكوب بوركارت ؛ فهو لم يشترك مع أقرانه فى نظرتهم المتفائلة إلى التقدم التاريخى ، أو تصور وجود مخطط كبير لأحداث العالم – يدفعنا إلى اغتفار كل الشرور باعتبارها ضرورية لإبراز الخير . وبدلاً من أن يسلم بوجود هذا المخطط ركز على الأحداث المتكررة النمطية ، واعتبرها أهم بكثير من الأحداث الفذة ؛ ولكننا إذا استثنينا بوركارت والمحاولات الأولى لطرق عالم الحضارة

نستطيع القول بأن القرون السابقة للقرن العشرين قد تشبثت بفكرة التاريخ السياسى الذى يتركز على أعمال الدول ، وأن عظماء المؤرخين والمفكرين قد نظروا لأحداث الحضارة على أساس أن أحداث التاريخ تسير فى خط مستقيم يعبر عن التطور والتقدم . ويكشف المؤرخ عن هذا الاتجاه ، ويحدد المراحل التى يتبعها تيار التقدم التاريخى فى مختلف العلوم .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر – ارتفعت صيحات نقد لفكرة التطور فى خط مستقيم ، ولكن التيار المعارض لم يثبت وجوده إلا فى القرن العشرين عندما بين أن قوانين التقدم فى خط مستقيم لا تزيد عن نوع من السبل التى تتبعها الأحداث التاريخية . وقيل أيضاً : إن فكرة التقدم فى خط مستقيم لن تحدث إلا إذا كانت تجرى فى فراغ مطلق من المؤاثرات الخارجية الأخرى إذا فقدت هذه المؤثرات فاعليتها أو كانت فى حالة توازن ونسى أنصار هذا المذهب أن الإنسان والمجتمع والحضارات كيانات شديدة التعقيد وتخضع لمؤثرات حضارية واجتماعية . وبذلك تغلب الرأى باستبعاد فكرة التقدم فى خط مستقيم ، وانتقل الاهتمام من الربط بين التغير والتقدم إلى التركيز على جوانب أخرى فى دراسة الأحداث التاريخية والاجتماعية : فتركز البحث على الملامح المتكررة فى هذه الأحداث من قوى وتيارات تغير وعلاقات ؛ وظهرت تصورات جديدة لإيقاع أحداث التاريخ ولدراسة التاريخ وتقلباته . وأسفرت هذه

المعتقدات عن تصور التاريخ يضم جملة حضارات فقال بعض العلماء مثل المؤرخ الإنجليزى توينبى : إنها تتبادل التأثير ؛ وقال آخرون مثل فيلسوف الحضارة الألمانى إشبنجلر : إنها منعزلة . وظهر تصور مختلف عن تصور التقدم فى خط مستقيم رأى الحضارات تدور كالأفلاك فى خطوط دائرية . وعادت إلى الحياة النظريات التى مرت على البشرية مرور الكرام فى أفكار أفلاطون وأرسطو والمؤرخ الرومانى بوليبيوس والفيلسوف العربى ابن خلدون والفيلسوف الإيطالى فيكو الذين تصوروا دورات الأحداث وشبهوها بدورات النجوم والكواكب .

وأول تاريخ ثبتت فيه هذه النظريات الجديدة فى القرن العشرين ، كان تاريخ الفنون والاقتصاد ، وتبعته أبحاث فى الفلسفة والسياسة والدين ؛ وبذلك اكتملت كل مكونات الحضارة ، وأصبح الطريق ممهداً لظهور نظريات فسرت الحضارة تفسيراً جديداً فى صورة دورات ، ونظر لها على أنها كائنات عضوية تمر بمراحل طفولة ونضج وشيخوخة ثم تموت ، أو قيل : إنها تمر فى فصول أربعة ، وفى ربيعها تسود القيم الروحية ويتعلق أبناء الحضارة بالقيم فى صورتها المطلقة ، ويتبعون الفلسفات المثالية ، ويفرقون تفرقة مطلقة بين الأفكار الموجبة والأفكار السالبة . ويتركز الاهتمام بالتصوير والنحت فى الموضوعات الدينية ، ويبحث المفكرون عن الأصالة ، ولا وجود لأى أخلاقيات نفعية ، وتسود روح الود الإسرى العلاقات بين أفراد الحضارة الواحدة ، ويخضع

الناس باختيارهم لقلة من الأرستقراطيين من أصحاب المواهب الخلاقة .

وفى آخر مراحل دورة الحضارة ! أى شيخوختها أو شتائها ، نصادف سيادة الروح الدنيوية والمادية والنفعية والتجريبية ، وتصور القيم فى صورة نسبية ، وتدهور الروح الدينية وعدم الاهتمام بالأصالة والإلهام وشيوع الفنون الحسية والأخلاقيات والقوانين الدنيوية ، وتزايد الطبقية والشعور الطبقى ، وتصدع النفس والروح وشيوع روح القطيع وزيادة الاندفاع نحو المدن وغلبة الروح النفعية على سلوك الأفراد ، والاستعاضة عن القلة الأرستقراطية ببعض أصحاب الاجتهاد أو الوصوليين والمتسلقين ويرتبط النفوذ بالثراء ويمهد هذا لظهور القياصرة والديكتاتورية والغوغائية .

ويلاحظ أن التركيز على المعانى المتكررة فى تيار الأحداث قد أبعد فلسفات الحضارة أو الفلسفات الاجتماعية كما يسميها سوروكين عن الروح الأصلية للتاريخ : فهذا النوع الذى تركز على الحضارة لا يكترث كثيراً بالواقعة المفردة التى تعد أساس كل كتابة تاريخية حقٍّ . ونحن لا نفرق بسهولة بين مؤرخ مثل توينبى وعالم اجتماع مثل سوروكين أو ماكيفر ؛ فهم جميعاً يركزون على العلاقات المتكررة ودورات الحضارة ، ويضعون صحة الواقعة التاريخية فى المقام الثانى ، وبوجه عام وحتى تزداد الأسس التى اعتمد عليها تاريخ الحضارة أو الحضارات وضوحاً سنعرض فيما يلى ثلاث نظرات مختلفة .

٢ - **إشبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦)** رأى أن الحضارات كائنات

عضوية وتاريخ العالم يمثل تاريخ حياة هذه الحضارات مجتمعة ؛ فهى تنبت وتنمو وتحقق رسالتها أو غايتها ثم تموت . وعلى حد قوله «الحضارة تولد فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح عظيمة تنفخ فى الأحداث وتجسمها فى صورة متمايزة ، وتخلق شكلاً من اللا شكل وكائناً محدداً متناهياً من اللا محدود اللا متناهى ، ثم تزدهر وتموت بعد أن تحقق هذه الروح كل ممكناتها فى شكل شعوب ولغات وعقائد وفنون ودول وعلوم ، وتعود إلى مادتها الأولى التى بعثت منها . . . وبعد أن تدرك غايتها تتجمد فجأة وتتحطم ويتجلط دمها وتتبدد قدرتها الخلاقة وتتحول إلى مدنية فكل حضارة تمر خلال نفس المراحل التى يمر بها الفرد : فلها صباها وشبابها وفحولتها وشيخوختها ، فى صباها تكون لها روح يانعة مثقلة بالشكوك ، وباقترابها من ذروتها يزداد تدريجياً عنفوانها وفحولتها ، وتتحدد ملامحها وقدراتها على تأكيد ذاتها ، فى هذه المرحلة تكون كل صفة من صفات تعبيرها لها غاية مرسومة دالة على التمعن والثقة بالذات ، وأخيراً بعد أن يخبو لهيبها تدخل مرحلتها الأخيرة : أى المدنية نذير النهاية ؛ ففيها تصاب بتصلب شرايينها ، وقد تشع من حالة التجمد أو التصلب هذه روح يتوهم بعض أنها استمرار لروح الحضارة ، ولكنها فى الحقيقة روح زائفة فيها كل أوهام المدنية ، وينخدع البسطاء بمظهرها المادى الباهر ووفرة مخترعاتها ، ولكن هذه المظاهر تخفى حقيقة هامة ، وهى فقدان كل مقومات حيوية الحضـارة . ومن مظاهر المدنيـة أيضاً . تقديس

العلم والتكنولوجيا والعلمانية والميتافزيقيات المجردة الميتة بدلاً من الإيمان الوجدانى ، والتعلق بالوقائع المادية بدلاً من التقاليد العريقة النابعة من روح العصر ، وإيثار المصلحة والمنفعة على القيم المصيرية ، والاندفاع وراء الشهوات بدلاً من الروحانيات . وفى مرحلة المدنية تحدث جملة محاولات لتجديد شباب الحضارة ، ولكنها تبوء بالفشل . وصراعات مرحلة الحضارة حتى الدموية منها – تعبر عن غايات روح العصر فى صورة وقائع تاريخية ، أما فى مرحلة المدنية فإن كل ما يهتدى إليه هو وَهْم العظمة الزائفة . وقد تمكث المدنية مئات بل آلاف السنين فى مثل هذا الجمود ؛ كما حدث فى الصين والهند والعالم الإسلامى . وربما حدثت صحوات تفيق فيها القوى الخلاقة فتبدع أعمالاً نصف ناضجة اعتدنا أن نسمى مبتكراتها فى الفن بالكلاسيكية ، وتعنى الفن الخالد ، ولكنه فى الحق فن حضارة محتضرة .

وبعد أن تشعر المدنية باقتراب منيتها تفقد رغبتها فى الاستمرار ؛ كما حدث فى إمبراطورية روما : فإنها آثرت ظلمة الليل على نور الصباح ، وتحللت وارتدت إلى حالتها الأولى ، وتبدو حالة الردة هذه كأنها عودة إلى الإيمان الدينى .

ولكل حضارة رمز أو مفتاح مميز تنفرد به يطبع بطابعه كل مظاهر الحضارة ، ويفصح عن نفسه فى صورة الدولة وأساطيرها ومعتقداتها وطابع علمها وفلسفتها وفنونها وأسلوب تفكيرها وحياتها وسلوكها :

فالحضارة الكبرى تعبر عن نفسها وعن طابعها المميز فى كل جانب من جوانبها ، ونحن لن نستطيع التحدث عن مميزات كل حضارة ، ونكتفى ببعض إشارات متفرقة إلى أهم ما تميز به أسلوب إشبنجلر مع التركيز بوجه خاص على أهم حضارتين فى نظره ، هما الحضارتان الكلاسيكية والفاوستية. ومفتاح الحضارة الكلاسيكية أو الأبولونية هو الجسم بصورته الحسية ، كنموذج لكل ما يحيط بنا من أشياء . أما مفتاح الحضارة الغربية أو الفاوستية فهو الفضاء بلا حدود . وتبعاً لذلك كان تمثال الجسم العادى هو مثال الحضارة الكلاسيكية على حين تمثل الفوجة فى الموسيقى (وهى صيغة موسيقية تدخل فيها الأصوات فى كل شطرة جديدة بنغمة أو لحن خاص ، ويبدأ الشطر الجديد متداخلاً مع قفلة الشطر السابق على نحو يشعرنا باللاتناهى واللامحدد كتعبير عن اللامتناهى) . ومن مظاهر الأبولونية الفيزياء (الاستاتكية) أو الساكنة ، وعبادة إلهة أوليمب ، والدول المدُن ذات الحدود الواضحة المعالم . أما الحضارة الفاوستية فتتمثل فى الفيزياء الدينامية لجاليليو . والخلاف العقائدى بين البروتستانت والكاثوليك ، وفن الباروك ومصير الملك لير عند شكسبير ونموذج بياتريس كما صورها دانتى ، وكل ما تضمنته فاوست لجوتة .

وفن التصوير الذى يحدد الجسم الإنسانى بخطوط واضحة كلاسيكى أو أبولونى ، أما الفن الفاوستى فيتلاعب بالنور والظلال ، كما هو الحالة عند رمبرانت .

ويتصور أبناء الحضارة الكلاسيكية الكون فى صورة كل منعزل مادى حاضر ومجسم على عكس الحضارة الفاوستية التى تصورته فى صورة فضاء لامتناه .

والمعبد الدوربانى فى الحضارة اليونانية مؤلف من أعمدة تظهر كأشجار لها جذور ممتدة فى الأرض ، والفضاء محصور بين هذه الأعمدة والتماثيل . أما الكاتدرائية القوطية الممثلة للحضارة الفاوستية بنوافذها الضخمة أو اللوحة التأثيرية التى فرغت من الأجسام كل جسمانياتها — فروحانية خالصة .

وتختلف الحضارتان فى تصورهما لعالم الأبطال : فإلهة أوليمبوس عند الحضارة الكلاسيكية تعيش فوق بقعة من تربة اليونان ، أما الإلهة (فى الحضارة الفاوستية) فخلو من كل سمات حسية : أرواحه شاردة منطلقة فى فضاء بلا حدود ؛ لأن الروح الفاوستية تهيم (وحيدة) فى فضائها ومن هنا كان الأبطال : زيجفريد وبارسيفال وتريستان (عند فاجنر) وهاملت (عند شكسبير) وفاوست (عند جوتة) — هم أبطال الوحدة بين كل أبطال الحضارات .

والله فى تصور الحضارة الفاوستية كل لامتناه ، يعبر عنه رمزياً فى صورة العاصفة أو صورة «فوجة» على الأرغن . والفيزياء فى الحضارة الفاوستية قد أذابت العالم المادى وحولته إلى طاقة خالية من الأجسام تسبح فى اللامحدد أو الخواء .

والحضـــارة الكلاسيكية تبعـاً لـرمزها الأول بلا ذاكرة — تحيا فى الحاضر المحسوس ، والتاريخ لا يؤدى أى دور فيها ، والماضى والمستقبل غارقان فى الحاضر ، ومن هنا نشعر بعدم وجود أى شعور بالزمان فى الكتابة التاريخية لهيرودوت وتوكوديدس . وفى الحضارة الهندية الزمان وهم والنيرفانا هى جنة الهنود ؛ ففيها يتحقق الإنقطاع الكامل عن وهم التغير الذى أوحى لنا بالزمان . يعكس الحضارة المصرية التى لا ينسى فيها أى شىء ، ويحتفظ المصرى فى ذاكرته بذكرى كل الأحداث التى مر بها . والحضارة الغربية (أو الفاوستية) تاريخية تحيا فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ولذا ترى الساعة تعلو الأبنية الكبرى فى المدن الغربية رامزة إلى قيمة الزمان فى حضارتها .

والفنون الجميلة والموسيقى تختلف أيضاً من حضارة لأخرى : فكل حضارة تخلق فنونها على نحو متوافق مع روحها كتعبير عن مفتاحها أو رمزها الأول . وتمر الفنون الجميلة فى كل حضارة فى نفس الأطوار وفى نفس الحقبة الزمنية . وفى مرحلة المدنية تتحول إلى مسائل تقنية خاضعة لفكرة الكم وإرضاء أذواق السوقة ، ولا تخجل من التكرار والتقليد بعد أن فقدت كل قدرة على الأصالة . وتحدث إشبنجلر عن الفنون الجميلة المعاصرة له ، فوصفها بأنها زائفة وعاجزة . وما يعرض فى المعارض أو الحفلات الموسيقية أو المسارح لا يزيد عن فن (الصرماتية) إشارة إلى أساطين الغناء فى القرون الوسطى فى ألمانيا الذين كانوا يمارسون حرفاً ،

ويمارسون صناعة الغناء بنفس أسلوب حرفتهم : فما يشاهد فى الفن والموسيقى اليوم حماقات صاخبة وسوقيات تستسيغها الجماهير الذين فقد الفن عندهم ضرورته الروحية . والموسيقى مصطنعة مشحونة بجلبة الأوركسترات الضخمة ، والفن التشكيلى حائر ملئ بالبلاهات والغرائب والمؤثرات الحسية ، يتخبط ويلفق أسلوباً جديداً بين الفنية والأخرى . وبعض هذه الأساليب (ملطوشة) من أساليب أشور ومصر والصين والمكسيك . هذا هو الفن الذى يقال : إنه نابع من الشعب وإلى الشعب .

وتقاس أحياناً قيمة هذا الفن بمدى بقائه ، إنه سيظل ألف سنة أو يزيد فى حالة خواء ومحاكاة عقيمة للفنون التى ظهرت فى أطوار صبا الحضارة وفحولتها .

ولا وجود أيضاً لقيم أخلاقية تشترك فيها كل الحضارات . فلكل معاييرها ، والأخلاقيات الكلاسيكية أخلاقيات جسم متسق ومتوافق ، أما الأخلاقيات الغربية أو الفاوستية فمحورها الأفعال أو الإرادة النابعة من وجداننا أو إرادة القوة ، أما أخلاقيات الحضارات الأخرى فتنبع من فكرة التعاطف والتطهير النفسى والتحرر من الذات أو الإرادة والشعور بالفردية سعياً وراء النيرفانا أو العدم المقدس والبراهمان .

٣ – ويكفينا هذا من إشبنجلر وشطحاته الميتافزيقية التى ربما لا يستسيغها مجتمعنا الغارق فى المدنية والمنفعة وكل الشرور التى أثارت

سخط إشبنجلر وننتقل إلى توينبى (١٨٨٩ – ١٩٧٥) . ولن نتحدث حتى بكلمات قليلة عن خصائص حضاراته الواحدة والعشرين ، أو عن الأسباب التى دفعته إلى تصنيفها على هذا الوجه . وأول مشكلة سنتناولها هى مشكلة أصل الحضارة : لماذا تصل بعض المجتمعات إلى مستوى الحضارة وتخفق مجتمعات أخرى عن بلوغ الحضارة ؟ ولا يرجع توينبى أصل الحضارة إلى أصل الجنس فى ذاته أو البيئة الجغرافية فى ذاتها ، بل يرجع ذلك إلى العنصرين مجتمعين : عندما تظهر أقلية صاحبة روح خلاقة وتتوافر بيئة ظروفها بين بين ، أى بين الظروف المواتية والظروف المعاكسة . والجماعات التى فشلت فى تحقيق هذه الظروف بقيت فى مستوى أدنى من مستوى الحضارة . والمبدأ الأساسى لخلق الحضارة هو مبدأ التحدى والاستجابة : فالبيئة الجغرافية فى النوع غير المواتى لظهور الحضارة تتحدى المجتمع الذى ينجح فى الاستجابة لهذا التحدى بفضل أقليته الخلاقة ، ويحقق ما يحتاج إليه ، ثم تتوالى التحديات والاستجابات الناجحة وبذلك تُدْعم الحضارة فى المجتمع .

ومشكلة أخرى فى دراسة توينبى : لماذا نجحت محاولات التحضر فى بعض المجتمعات وتعثرت فى مجتمعات أخرى ؟ فقد أخفقت أربع حضارات (الحضارة المسيحية الغربية الأولى والحضارة المسيحية الشرقية الأولى والإسكندنافية والسريانية) . وتعثرت فى وقت مبكر فى خمس حالات (البولينزية والإسكيمو وحضارة البدو والإسبرطية والعثمانية)

أما باقى الحضارات فقد نهضت بفعل قوة دافعة جاءت بالاستجابة المناسبة لكل تحدٍ واجهته ، وبذلك تجددت معالمها وحققت تكاملها . وأجاب توينبى عن هذا السؤال بأن نمو الحضارة لا يرجع للتوسع الجغرافى للمجتمع ؛ فهذا التوسع يصحبه تخلف وتفكك بدلاً من التقدم والنهوض ؛ ولا يرجع نمو الحضارة أيضاً إلى التقدم التكنولوجى أو زيادة سيطرة المجتمع على البيئة الطبيعية ؛ فلا وجود لأى ارتباط بين التقدم فى التقنية والتقدم فى الحضارة التى تنجح فى الإفصاح عن ذاتها وإرادتها عندما تتغلغل قيمتها فى نفوس أبنائها وتبسط معداتها وتقنيتها .

وللحضارة وحدة على رأسها أقلية ذات روح خلاقة ، تقلدها الأغلبية وتتبعها بحرية كاملة . فلا وجود فى المجتمع المتحضر لأى صراع دموى أو تصدع ؛ فهو جسم متسق ومتوافق ، وكل حضارة لها صفة غالبة تختلف باختلاف الحضارة ؛ فقد كانت الصفة (الاستاطيقية) أو الجمالية أو الفنية هى الغالبة على الحضارة الهلينية . والدين هو الغالب على الحضارة الهندية والحضارة الإندية (بالقرب من جواتيمالا بأمريكا الجنوبية) ، والحضارة الغربية خاضعة للآلات والمعدات العلمية . وهكذا .

وثالثة مشكلات الحضارة هى أسباب تصدعها . وهذه ظاهرة ملحوظة ، فلم يبق من الحضارات الكثيرة أكثر من أربع ، والأخرى ماتت أو اقتربت من الاحتضار . والاختلاف بين نهوض الحضارة

وتحللها – أنه فى حالة النهوض تنجح الحضارة أو بمعنى أصح أقليتها الخلاقة فى الاستجابة إلى التحديات المتتالية والمتنوعة التى تواجهها : ولكنها عندما تتدهور تفشل فى مواجهة التحديات . ويرى توينبى أن الحضارة تنتهى بالانتحار لا بالقتل ، ويُجمل أسباب التصدع فى ثلاثة عوامل : فشل القوة الخلاقة عند صفوة الأقلية ، وفتور الإيمان عند الأغلبية ، ويتمخض هذان السببان عن سبب ثالث هو فقدان وحدة المجتمع فى شموله .

ويقول توينبى : عندما تتدهور الأقلية الخلاقة وتتحول إلى أقلية محبة للسيطرة ، وتحاول الاحتفاظ بسلطانها على المكانة التى لم تعد جديرة بها – يتسبب هذا التغير القاتل فى طابع الحاكم فى استفزاز الأغلبية الموالية له التى تفقد إعجابها به ، وتتوقف عن محاكاته ، وتثور بعد أن هبطت منزلتها إلى منزلة المستضعفين . وهؤلاء الموالون ينقسمون عادة إلى موالين فى الداخل والخارج ، وسرعان ما يؤدى فقدانهم لروح الولاء إلى الأقلية الحاكمة إلى تشاحنهم وظهور حرب طبقية تنتهى أحياناً بانتقال السلطة إلى نظام كنائسى يمثل الروح الدينية وتنحية الأقلية الفاشلة والاستعاضة عنها بحكام جدد .

ويعتقد توينبى أن مرحلة التدهور تمر فى ثلاثة أطوار : أولها التصدع ثم التحلل والتفتت : وعلى سبيل المثال حدث تصدع الحضارة المصرية القديمة فى القرن السادس عشر ق . م ، ولكنها تحللت فى القرن الخامس

الميلادى ، وخلال هذه الحقبة أى زهاء ألفى سنة بقيت فى حالة متحجرة شبيهة بالموت . وفى الصين بالمثل تصدعت حضارتها فى القرن التاسع الميلادى ، وبقيت ألف سنة حتى انتهى تحللها . ومن ناحية الحضارة الغربية برغم وجود أعراض التصدع فإن توينبى آثر الحياد ولم يصدر حكماً قاطعاً وكأنه يتوقع حدوث معجزة ، وعبر عن ذلك فى ابتهال إلى الله بأن يرجئ نهاية عالمنا . وسوف يستجيب الله إلى هذا الدعاء ما دمنا نشعر بالندم وقلوبنا محطمة » .

فالدين عند توينبى عظيم الأهمية وهو الملاذ الذى لجأت إليه الأغلبية فى داخل الإمبراطورية الرومانية عندما ساءت سيرة الحكام ، فظهرت المسيحية التى خلقت حضارة جديدة فيها ملامح ووشائج تربطها بالحضارة القديمة ، ولكن تغير طبقة الحكام قد أضفى على قيمها روحاً جديدة لم تعرف من قبل . فالرجوع إلى الله عند توينبى هو نهاية المطاف فى التطور من حالة إنسان ما قبل الحضارة إلى حالة الإنسان المتحضر ، إلى السوبرمان أو الإنسان الأعلى الذى يتجاوز الحضارة وبذلك عادت عند توينبى فكرة التقدم والارتقاء برغم إيمانه بأن حركة الحضارة دائرية متكررة إلا أن الدين هو العنصر الوحيد الذى يمثل فيها حركة صاعدة .

٤ — كروبر : أخترت ألفرد كروبر كممثل لنظريات الحضارة المحدثة وشهرته أقل من شهرة إشبنجلر وتوينبى ، وإن كان كتابه عن الحضارة يتماثل مع منجزاتهما من حيث الأهمية . هذا الكتاب هو

The Nature of Culture (١٩٥٢) وفيه أثار جملة مسائل خاصة بالحضارة ، وتساءل عن طريقة تغير الحضارات العليا ، وهل يحدث جانبها الخلاق فى صورة مطردة أوفى صورة مباغتة على شكل تفجرات ؟ وهل تظهر هذه المظاهر الخلاقة فى كل ميادين الحضارة أو فى بعضها ؟ وهل تكشف الحضارات عن قدراتها الخلاقة فى نفس المجالات ؟ وما مدى استمرار فترات الازدهار والإجداب ؟ وما العوامل التى تتحكم فى ازدهار الحضارات وإجدابها ؟ هل هذه العوامل كامنة فيها أوخارجة عنها ؟ وهل تحدث الدورات الخلاقة فى وقت مبكر أوقرب نهايتها ؟

والاختلاف بين كروبر وإشبنجلر وتوينبى يعتمد على استناده إلى الطريقة التجريبية الاستقرائية ورجوعه إلى تاريخ الفلسفة والعلم واللغويات والنحت والتصوير والموسيقى والأدب والدراما وأنظمة الحكم فى مصر القديمة والهند والصين واليابان وفارس والدولة الإسلامية وبيزنطة بعد دراسة حضارتها ؛ كما درس فى التاريخ المعاصر تاريخ كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا والبلاد الواطئة وسويسرا وروسيا والولايات المتحدة دراسة مستفيضة ، واعتمد فى هذه الدراسة الاستقرائية على قياس تقدم أى حضارة بالرجوع إلى عدد العباقرة ، مع التركيز على قيمة منجزاتهم من ناحية الكم والكيف : فعندما درس الفلسفة اليونانية أشار بوجوب التمييز بين عهدين من عهود الإغريق : عهد خلاق لم يدم أكثر من ثلاثة قرون ، وعهد عقيم دام إلى أجل غير محدود ، واستمر العهد

الخلاق من ٣٨٥ ق . م حتى ٢٧٠ ق . م عندما ظهرت المذاهب الرواقية والأبيقورية ومذهب الشك ، وبلغت الفلسفة الذروة حوالى ٣٥٠ ق . م وبعد موت أرسطو بخمسين سنة لم يظهر أى فيلسوف عملاق أصيل . وقام كروبر بأبحاث مماثلة عن نهضة المسيحية وتدهورها ، ونهضة الإسلام والفلسفة الحديثة (الألمانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية) .

ومن هذه الأبحاث وغيرها إستخلص جملة مبادئ نختار هنا أهمها :

١ – لا وجود لأى دلائل تحتم نهوض أى حضارة إلى مرتبة الحضارة العليا ؛ فالقليل جداً من الحضارات هو الذى استطاع بلوغ هذه المرتبة .

٢ – لا وجود لأى أدلة كافية عن وجود قانون يفسر ظاهرة الحضارة ؛ فالمعتقدات الشائعة عن مرور الحضارة فى دورات أو حلقات أو تكرار بعض الأحداث فى نظام معين مجرد خواطر لا تستند إلى أدلة حاسمة .

٣ – لا وجود لما يؤيد الزعم بأن أى حضارة إذا ازدهرت مرة فلن تعاود الازدهار مرة أخرى .

٤ – كل حضارة عالية قد جاءت ببعض منجزات أحدثت طفرة فى حياة البشرية . وعدد هذه المظاهر الفذة محدود للغاية فهى تحدث نادراً وفى حضارات قليلة ، ولا تعيش طويلاً ، وتتركز فى أماكن وأزمنة معينة ، وتتردد فترات ازدهار هذه المظاهر من بضع عشرات السنين إلى قليل من القرون .

ومن المسائل التفصيلية التى درسها كروبر : موقف الفن والفلسفة المعاصرين ، وقال : إنه ابتداء من عام ١٨٨٠ ظهرت علامات إنهاك فى هاتين الناحيتين ، وحدث انحلال فى جوانب تميزهما يتكشف فى الإيقاعات الصاخبة وشيوع التنافر فى الموسيقى ، والشعر الخالى من الأوزان والقوافى ومن المعنى أحياناً ، والروايات التى تخلو من العقدة الروائية ومن الموضوع ومذاهب التكعيبية والسريالية ، والمجالان الوحيدان اللذان استمرا مرفوعى الهامة هما مجال العلم والإنتاج الصناعى . ولا يستطاع الحكم بتدهور الحضارة الحديثة والزعم بأنها قد انتهت إلا إذا أجدب البحث العلمى ، وتقلص الإنتاج الصناعى : والتمرد الذى شاغ فى القرن التاسع عشر على الكلاسيكيات (كفلسفة كانط وموسيقى بيتهوفن وأسلوب جوته) إنما يرجع إلى أن هذه المنجزات قد بلغت الذروة واستنفدت كل أغراضها ، وما ظهر بعدها لم يزد على تكرار عقيم . والتمرد على مثل هذه المقلدات والطعن فى قيمتها لا يعنى أن القريحة الإنسانية قد استنفدت كل عبقريتها .

٥ — عندما ندرس تاريخ الحضارات سنرى أن بعضها قد نبض أو ازدهر مرة واحدة ، وبعضها الآخر قد نبض مرتين أو أكثر . وأحياناً تحدث هذه النبضات إبان فترات الركود أو «الاستراحة» بين العهود الخلاقة . وأحياناً تكون النبضة الأولى هى العظمى من ناحية القيمة الخلاقة . وأحياناً تكون الثانية ، بل ربما الثالثة ، فلا وجود لأى أدلة

مطردة عن موعد فترات الازدهار أو المدة التى تستغرقها نبضات الخلق أو عددها .

٦ – تستمر الفترات الخلاقة أو المزدهرة فترة أقصر من فترات التدهور أو التجمد ، وبالمثل لا يزيد مجموع الفترات التى استغرقتها النبضات الخلاقة على حقبة قصيرة جداً بالنسبة إلى عهود الركود والخمول الطويلة .

٧ – تختلف الجوانب الخلاقة من حضارة لأخرى : فلا وجود لأى حضارة استطاعت الخلق فى شتى الجوانب ، وهكذا لم تظهر ابتكارات فلسفية فى الحضارات القديمة لمصر والعراق وروما واليابان والنهضة الأوربية ، ولم تبدع الحضارة الإسلامية فى النحت (واضح أن هذا كان نوعاً من الاحتياط ضد الردة إلى عبادة الأصنام) . وفى ميدان الرياضيات ثمة إجداب فى حضارات روما وأوربا الوسيطة واليابان (باستثناء الجبر) . والصين فقيرة إلى حد كبير فى عالم العلم وفى أثناء ازدهار حضارات اليونان وألمانيا وإيطاليا كانت هذه البلدان متخلفة فى ناحيتى السياسة والاقتصاد . ولما كان الازدهار الحضارى يحدث جزئياً – أى فى بعض جوانب فقط – فإن هذا يعنى أنه لا وجود لصلة علية بين هذه الجوانب . وترد هذه النتيجة على ما قاله الباحثون عن تكامل الحضارة أو وجود روابط منتظمة بين شتى مظاهرها .

٨ – يضرب كروبر مثلاً بالعلاقة بين ازدهار النحت والتصوير وبينهما علاقة وثيقة . واكتشف أنه من بين ١٣ حالة ازدهر النحت قبل التصوير

خمس مرات ، وازدهر الاثنان معاً فى نفس الوقت مرتين . وازدهر التصوير قبل النحت مرتين . وبالمثل عند مقارنة ازدهار الفلسفة والعلم : فى حالتين (الصين والهند) ظهرت المذاهب الفلسفية قبل حدوث أى تقدم علمى ملموس ؛ وبذلك تخلف العلم عن الفلسفة فى هاتين الحضارتين . أما فى اليونان وبعض أمثلة قليلة فقد بزغ العلم والفلسفة معاً ، ثم اتجه كل منهما اتجاهاً مختلفاً ، واختلفا أيضاً فى نبضاتهما الخلاقة . وفى أغلب هذه الحالات كان الإبداع العلمى أكثر استمراراً وأطول عهداً من الإبداع الفلسفى . وبوجه عام : عندما تتحول الفلسفة إلى دين (كما حدث فى الهند وأوربا الوسيطة) أو تكون وثيقة الصلة به فإنها تجنح إلى إعاقة التقدم العلمى ، وعندما تكون الفلسفة «طبيعية» فإنها لا تتحول إلى دين ، وتظل مستقلة عنه وفى هذه الحالة تتحالف الفلسفة والعلم .

٩ – لا ارتباط بين الازدهار السياسى والاقتصادى وازدهار باقى مظاهر الحضارة : فبعض الأمم كالمغول والترك والليتوانيين والمقدونيين والفرس الساسانيين قد أنشئوا إمبراطورية هائلة دون أن يشاركوا على الإطلاق فى ميدان الحضارة ، أو شاركوا فيها بنصيب ضئيل للغاية . ومن جهة أخرى فإن بعض بلدان كألمانيا (فى أول عهد ازدهارها) أو إيطاليا فى عهد النهضة أو حتى اليونان – قد ازدهرت فيها الحضارة برغم ضعفها السياسى أو ربما انحلالها السياسى . وقد أثبتت بعض البلدان قدرتها الخلاقة فى بعض ميادين حتى بعد أن فقدت استقلالها السياسى ،

كما يتبين من انتعاش الشعر والموسيقى فى بولاندة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وازدهار الأدب فى الصين حوالى ٢٠٠ م ، والازدهار الحضارى فى فارس بعد اعتناقها الإسلام ، ولكن إلى جانب هذه الأمثلة – هناك أمثلة تدل على وجود ارتباط بين ازدهار الحضارة والسياسة (فى مصر القديمة واليابان والصين والهند وأغلب البلدان الغربية) ، وتعزز هذه الناحية بوجه خاص فى ارتباط العلم بالازدهار السياسى والاقتصادى .

١٠– يجب ألا نشعر باليأس لتأخر ظهور الحضارة العليا أو ظهور جوانبها الخلاقة فى نواح تافهة : فكل سكان أوربا قد تأخروا فى بلوغ الحضارة العليا ، فلم تشترك فى هذه الحضارة العليا أى دولة أوربية (باستثناء اليونان وروما) إلا من ١٠٠٠ سنة تقريباً ، ولم تعرف أمم الشمال أو شرق أوربا الحضارة العليا إلا منذ مائتى عام .

١١– الحضارات التى ظهرت فى جزر تأخر ظهورها ، واعتمدت على حضارات القارات المجاورة : (على الهند) فى حالة جزر الهند الشرقية ، وعلى الصين فى حالة اليابان ، وعلى أوربا فى حالة إنجلترا . ولم ينته التخلف الحضارى فى إنجلترا إلا عام ١٥٥٠ .

١٢– تموت الحضارة عادة عندما تحل حضارة أسمى محل الحضارة السائدة وقد تقاوم هذه الحضارة ، ولكنها تستسلم فى النهاية . . وما زلنا لا نعرف الكثير عن : هل يحتمل أن تموت الحضارة دون تدخل حضارة

أسمى ؟ ولا يميل كروير إلى الادعاءات القائلة بأن الحضارة تصاب بوهن من جراء الشيخوخة ؛ فالتقلب بين المظاهر الشامخة والمظاهر الدانية مسألة طبيعية للغاية ، ولا يقر أيضاً رأى إشبنجلر عن انعزال الحضارات وتعذر تفاعلها أو مرور الحضارات فى نفس الأطوار ، ويرى أن الحضارة قد تبلغ التشبع فى ناحية فتضطر إلى الابتعاد عنها والانتقال إلى جانب آخر : أى تتحول إلى صورة أخرى مختلفة .

هذه ثلاثة نماذج من نظريات الحضارة الكثيرة التى ما زالت تظهر بين الفينة والأخرى . والنظرية الأولى من وضع فيلسوف تاريخ ، والثانية من وضع مؤرخ ، والثالثة من وضع عالم اجتماعى وأنثروبولوجى . ويلاحظ أن المؤرخين لا يقومون بإقحام فكرة الحضارة على سير الحوادث ، لأنه يعنى فى نظرهم فرض إطار مسبق على الأحداث يعوق حرية البحث التى كان ينبغى أن يتمتع بها المؤرخ ؛ ولذا فإنهم يعتبرون المؤرخين الذين جنحوا إلى هذا الطريق الخاطئ قد خانوا علم التاريخ بمعناه الصحيح ، وانحازوا شعورياً أولا شعورياً إلى جانب علم الاجتماع أو النزعة الوضعية التى تريد تحويل التاريخ إلى علم طبيعى وتتناسى خصائصه الفريدة ومنهجه الذى يجب أن يتميز به .

الفصل الثالث

حضارتنا إلى أين ؟

عندما تذكر كلمة الحضارة بمفردها فى الكتابات الحديثة من علمية وغير علمية وغير ذلك يكون المقصود حينئذ هو الحضارة الحديثة ، أو بمعنى أصح الحضارة الغربية ؛ فقد احتكرت هذه الكلمة معنى الحضارة عند العوام والمثقفين على السواء . وما يقصده العوام بالحضارة هو جانبها المادى أو التكنولوجى الذى تحدثنا عنه عند كلامنا عن « المدنية » . ومن المفارقات الغريبة أن تنسب الحضارة الآن إلى المدنية التى قال بعض المفكرين وفى طليعتهم اشبنجلر : إنها تمثل مرحلة انحلال الحضارة . ولكن هل حقاً هناك حضارة واحدة ؟ .

إذا اعتبرنا الحضارة مقصورة على جوانب التكنولوجيا فمن واجبنا أن نقر بنجاح التكنولوجيا فى غزو العالم : فاليوم قد ظهرت ناطحات السحاب فى أغلب مدن أفريقيا وآسيا ، والأدوات الإلكترونية معروفة فى جميع القارات وبعض المشروبات الروحية وغيرها تقدم فى الفنادق فى شتى أنحاء العالم . فإذا قصد بالحضارة « المدنية » فإن علينا الاعتراف بأن هناك حضارة واحدة ، ولكن المفكرين لا يقبلون هذا المعنى ، ويرون

الحضارة بمعنى مختلف : فالفيلسوف الإنجليزى وايتهد قد استبعد من مقوماتها «العلم» وكان المفروض أن يكون أول دعاة صدارة العلم والتكنولوجيا على جميع مظاهر الحضارة : فنى تعريفه للحضارة قال : إن الإنسان أو المجتمع يعد متحضراً إذا تركزت اهتماماته على حب الحقيقة والجمال والمخاطرة والفن والسلام ؛ واستبعد العلم عن قصد لأنه أدرك أن الحضارات قد ظهرت أحياناً دون اعتماد على العلم ؛ فدوره كان هيناً للغاية فى حضارة عظيمة كحضارات الصين والهند وفارس . ولا ننسى أن اليونان لم تحقق سوى قدر ضئيل فى تفاصيل المعرفة العلمية الدقيقة . ودور الرومان أهون شأناً من اليونانيين وحتى الحضارة الغربية العظيمة التباهى بنفسها فإنها لم تحقق تقدماً علمياً صحيحاً إلا فى القرن السابع عشر . ولا تنكر قيمة المعرفة العلمية فى تزويد الحضارة بالتكنولوجيا وهى عماد جانب هام من الحضارة المادية الحديثة ، ومع هذا فإن الحضارة قادرة على توطيد أقدامها دون نظر إلى العلم ؛ فالمقومات السابق ذكرها هى المقومات التى رآها وايتهد وحدها أساساً فى كل الحضارات ، فاتخاذ المدنية كبديل للحضارة غير مقنع على الإطلاق .

وللرد على الزعم بأن العالم يعيش الآن فى ظل حضارة واحدة علينا أن نرجع إلى موقف مختلف البلدان ، فسنرى أن آسيا تعانى الآن تصدعاً روحياً كبيراً نتيجة لازدواج شخصيتها وصعوبة المواءمة بين المدنية الغربية التى استوردتها وروحانياتها الممثلة لحضارتها ، وأوربا نفسها لا تتبع

حضارة واحدة . زيادة على قسمتها المعروفة إلى شرق وغرب ، وهناك قسمة أخرى بين الشمال والجنوب . وفى هذا الصدد قال المفكر الإسبانى المعاصر أورتيجا إى جاسيه : إن حضارتى الشمال وحوض البحر المتوسط مختلفتان اختلافاً جذرياً ؛ فهما تمثلان اختلافاً خطيراً فى العقلية : الشمال يفكر بتصورات عقلانية مجردة ، وأهل الجنوب يفكرون تفكيراً حسياً ، فكأنهم عندما يفكرون فى مشكلة يعرضون صورة لها لا تفهم من ناحية علاقاتها الاستدلالية والعلِّية ، ولكنها تدرك من طريقة توزيع ألوانها المحسوسة . ولربما تحققت وحدة الحضارة مستقبلاً ، ولكن من المغالطة الزعم بأن هذه الوحدة قد تمت الآن .

وبوجه عام ليست مشكلة تشتيت الحضارات أو وحدتها من المسائل التى تشغل بال المفكرين ؛ لأن ما يقلقهم كما رأينا هو الاعتقاد بأن الحضارة الغربية قد ماتت وانتهت ، وأننا الآن فى حالة ضياع ! ، ومؤلفات الألمان ابتداء من القرن التاسع عشر حافلة بأمثلة متشائمة عن مصير الحضارة لعلها أصداء للروح المسيحية المتشائمة التى كانت تتوقع قيام القيامة سنة ١٠٠٠ م ولعلها أيضاً نابعة من النزعة المثالية السائدة فى الفكر الألمانى التى تشعرهم بالقلق للاختلاف الكبير بين عالم المثل وعالم الواقع ، وبخاصة بعد الثورة الصناعية وما أحدثته من تغير بعيد الأثر فى بناء الدولة وعلاقات الأفراد وظهور نوعيات جديدة من البشر الذين لم تعرفهم المجتمعات المستقرة من قبل . وقد حلل نيتشة هذه التغيرات

كامتزاج الطبقات وسيطرة الطبقة الصاعدة بدلاً من الطبقة الأرستقراطية ، وتحرير الطبقات الدنيا والنساء ، وتفكك الأسرة . وانهيار التقاليد والتكتل الجماهيرى الذى خلق نوعاً خطيراً من الاستبداد الذى أضعف الفرد . وعزا نيتشه انحلال الحضارة إلى انتشار الحكم الديموقراطى وفقدان السلطة المنظمة وظهور نوع من الزعماء المنافقين المتخصصين فى تملق الجماهير ، وعبادة الدولة . وتسخير الحضارة لغايات همجية .

وفى ميدان الاقتصاد ظهرت اقتصاديات المنفعة التى انعكست فى إيمان المجتمع بالقيم السوقية ، وتسخير غايات الحضارة للأغراض الشخصية وتبديد قدر كبير من طاقة الأفراد فى الكدح . كما حولت النظم الصناعية الحديثة العامل إلى عبد للآلة .

ومن نتائج سيطرة العلم أن تدهورت المعتقدات الدينية والأخلاقية دون ظهور بديل لها له نفس فاعلية هذه المعتقدات ، ولم يعد الفرد مركزاً للكون ، ولكنه أصبح فكرة من خلق المصادفة . وتسبب التخصص فى التعليم فى إهدار آدمية الفرد ، وطغت فى العلم الروح المدرسية على الجوانب الخلاقة . وازداد الهرب إلى الدراسات القصية فى المكان والزمان للتعويض عن نقص الحيوية فى الحاضر .

وانتشرت الضحالة فى التعليم ، وأصبحت غايته تخريج عبيد متخصصين من الموظفين السطحيين الملمين بالقراءة والكتابة فحسب ، تقتصر ثقافتهم على القراءة السطحية للصحف اليومية وتذوق الأعمال

الرديئة من الموسيقى والشعر ؛ فنظام التعليم فى نظر نيتشه هو أسوأ عائق لخلق حضارة نضرة . وفى الفن طغت الصنعة على الأصالة . والنعومة المخنثة على الفحولة . وأصبح شعاره التأثير بأى ثمن . والجرى وراء طرائف الموضوعات الغريبة أو المريضة أو المرعبة . وتلفيق الأساليب المستعارة . والخضوع الكامل لأذواق الجماهير أو المجهدين الباحثين عن المتعة . أو الأغبياء ! .

وفى الدين : أصبح المتدينون نوعاً من المتسولين الضعفاء الذين لا يهتمون بإيجابيات الدين ؛ لأن همهم هو الحصول على المغفرة عن الآثام التى يعجزون عن قهرها . وفى الفلسفة : اختفى العمالقة وحل محلهم نفر من الأقزام والتوابع الذين لا يليق انتسابهم للمهمة الجليلة التى تضطلع بها الفلسفة الحق ، وآثر كثيرون منهم الاكتفاء بالتعليق على الفلسفات الماضية أو رواية تاريخها وكثيراً ما يجيئون بأفكار مترهلة تثير سخرية أقرانهم . وفى الأخلاق : بلبلة من المثل المتضاربة الحائرة بين النزعة الإنسانية والتفاؤل والإيثار والرحمة ، ونوع من الرخاوة والنفاق الذى يصف بالقوة فضائل المعاناة والكفاح والجهاد ، أو يدعو إلى مثالية زائفة تتجاهل الحقائق .

ومن أمراض العصر التى أشاد بها نيتشة الإفراط فى العمل للهرب من الذات واللهفة والافتقار إلى الصبر والتهويش الفكرى ؛ فلا شىء يستطيع النفاذ إلى قاع الوجدان ؛ وبذلك أصبح الإنسان الحديث ألعوبة فى يد

المتغيرات الخارجية ، وتسبب قلق الحياة الحديثة فى ظهور نوع من المتسامحين الضعفاء أو من المتعصبين الأغبياء . . . وباختصار : فإن الحضارة الحديثة قد أضعفت الإرادة الإنسانية ، والتطلع إلى الخلق والإيمان بالخلود ، وانتهى نيتشه إلى إصدار الحكم بأن الحضارة الحديثة قد تدهورت واضمحلت ، كما يبدو من تفككها وتضاربها وإنهاكها وعجزها عن التكييف مع مشكلات العصر . وكل علاج يوصف يزيد الطين بلة . على أن نيتشة فى مكان آخر قد ميز بين التدهور الأخلاقى والسياسى والتدهور فى الحضارة وقال : إن أفضل صناع للحضارة قد ظهروا فى عصور الفساد الأخلاقى والسياسى !

ونقترب من هذه اللهجة المتشائمة لهجة الفيلسوف الألمانى المعاصر كارل باسبرز عندما يقول فى كتاب (الإنسان فى العصور الحديثة) : إن الأعداد الكبيرة قد هبطت بالحضارة ، واكتفت بالقيم والمثل التى تناسب أوساط الناس ، وتدهورت الروحية وأصيبت بالهزال نتيجة لتبسيط الأفكار وتقريبها من فهم العوام ، وبتنا مهددين باختفاء صفوة المثقفين الذين جاهدوا لترويض أفكارهم ومشاعرهم ، وخلقوا لنا كل مفاخر البشرية : فالجماهير العريضة محرومة من الفراغ ولا تهتم إلا بلقمة العيش والبحث عن المتع الرخيصة ؛ فلا عجب إذا غدا المقال النوع الأدبى الوحيد المعروف لدى الجماهير . وإذا حلت الصحف المصورة مكان الكتب الجادة ؛ فالناس يقرءون على عجل مجرد شذرات مهوشة ،

ويطالبون بما قل ، ولا يهم إذا دل أو لم يدل ؛ فلم تعد هناك صلة عميقة بين القارئ ومادة قراءته !

ولا يحدث الاطلاع الجاد الوحيد إلا فى مواد التخصص ، ولكن هذا النوع من القراءة برغم أهميته قد تسبب فى انعزال مختلف الطوائف كل عن الأخرى ؛ فلم تعد هناك موضوعات جادة مشتركة تجمع بينهم ، وتعريفهم طبيعة حياتهم ونفوسهم . والمثقفون فى حاجة إلى توعية لمعرفة طريقة الاطلاع على موضوعات كالتاريخ مثلاً . فعليهم أن يدركوا أن قراءة التاريخ ليست وسيلة للهرب من الحاضر ومشكلاته ، أو بقصد متعة دراسة ما فعله جدودهم وأسلافهم . فيجب ألا يكون الإلمام بالماضى سبباً فى تحطيم الحاضر أو تصوره فى صورة زرية . . إن ما نكتسبه من معرفة بالماضى يساعدنا على إعادة خلق الحاضر . . والتعلق بالتاريخ الذى يكتفى بالفهم لا قيمة له على الإطلاق ؛ فالواجب أن يساعدنا تعمق التاريخ على اكتشاف المنابع التى تغذى الحياة والحاضر بالتبعية ، وينسب باسبرز كل الخلال فى الحضارة إلى الصحافة وما اكتسبته من نفوذ وتأثير كبيرين ، ويقول : إن نفقات إصدار الجريدة ترغم صاحبها على بلوغ غايته فى الكسب بأى ثمن . . ولو أراد العثور على سوق لسلعته فعليه أن يخاطب غرائز الملايين بالإثارة والتركيز على التوافه والصغائر ، والحرص على تجنب إجهاد قرائه أو إرغامهم على استعمال عقولهم ؛ ولذا اتسمت مادة الصحف بالضحالة . بل بالخسة ! وإذا أرادت الصحف الانتعاش فعليها

أن تبيع نفسها لمراكز القوى السياسية والاقتصادية ، ومن هنا يفتن الصحفيون فى تنميق الأكاذيب والتهويل فى الدعاية على نحو منفر للمراكز العليا من عقولهم ؛ فهم يكتبون ما يكلفون القيام به . ولا يستطيع الكاتب الإخلاص إلا إذا سيطرت على ضميره مثل أخلاقية سليمة . فإذا تحدثنا عن العلم فسنرى اختفاء الاهتمام بالنظرة الجامعة منه والاقتصار على العلم بالجزئيات ، دون دراية بعلاقتها بالكل . وتقدر قيمة المعرفة من ناحية نفعها بدلاً من ارتباطها بفلسفة كلية تفسر الجزئيات ؛ وبذلك أصبحت نتائج العلم معلقة فى الهواء بلا جذور فى المعرفة بمعناها الصحيح . كل هذا قد جعل العالم فى موقف سيىء ؛ فهو يعرف جزءاً صغيراً للغاية مما كان ينبغى أن يعرفه لأن الحضارة الحديثة لم تلهمه الرغبة الحق فى المعرفة بما كان ينبغى أن يعرف .

هذه لمحات من الصورة القاتمة التى رسمها باسيرز ، وقد تدفعنا إلى اليأس ؛ لأنه قد تحدث عن الصفوة فى ألمانيا فى فترة من أزهى عصور حضارتها . ونحن نغفر له كل نقده القاسى ؛ لأنه يتضمن بعض العبارات المشجعة ؛ فهو يعرف المهمة الشاقة ، بل المستحيلة التى تواجه كل من يسعى لإنقاذ الحضارة ويقول : « من يهدف إلى المستحيل هو وحده الذى يستطيع بلوغ الممكن » .

فإذا تركنا الفكر الألمانى فسنرى بعض نظرات متفائلة إلى حاضر الحاضر ومستقبلها عند كثيرين من المفكرين وعلى الأخص الإنجليزى

وايتهد والفرنسى أندريه مالرو : فوايتهد يرى أن الحضارة الحديثة تتميز عن كل ما سبقها من حضارات بكونها خلاصة جامعة لأهم الحضارات الماضية ؛ ففيها كل مزايا الحضارات السابقة فى اليونان وفلسطين ومصر ، ومن اليونان استمدت تذوق الفن والجمال ودقة التفكير والعمل ، ومن عبقرية الشرق وأديانه تزودت بزادها الروحى : وتصورها للعالم متمركز حول فكرة الله . وتأثرت بمصر بوجه خاص فى ناحية الخبرات العملية ، وتعلمت من روما فكرة النظام وطريقة خلق وحدة فى أى كيان مشتت . ومن المستحيل أن تخلو أى حضارة من السلبيات : فى اليونان لم يشعر حتى الممتازون من الرجال بأى احترام لشخصية الفرد والرق كان مباحاً ، وفى العهد الهلينى ساد الشعور بعدم وجود أى جديد جدير بالاكتشاف ، وحلت الدراسات الروتينية محل أصالة التنقيب والاستقصاء . وإذا رجعنا إلى أغلب الحضارات السابقة فسنراها فى الأغلب لم تبال أرواح البشر ، وطالما ضحت بهم فى سبيل غايات دنيوية تافهة . وعبد الناس فى كل الحضارات سلطان القوة حتى عصر النهضة ، فإنه برغم حيويته قد استنفد كل طاقته فى عبادة اليونان ، وبرغم انتعاش بعض خصائص الحضارة كالاهتمام بالحقيقة والجمال والمخاطرة فإنه لم يعرف السلام واتسم حكامه بالشراسة والفظاظة ، وهذا يدلنا على أن الحضارة الكاملة لم تعرف على الإطلاق ، ولعل كل الشروط التى وضعها الفلاسفة والمفكرون لم تزد على مثل مطلقة بعيدة المنال ، وما عرفته الحضارات لم يزد على ملامح من

هذه الغايات الكبرى .

وفى حديث للأديب الفرنسى الكبير أندريه مالرو مع الأديب الإسبانى جى سواريز أشاد أيضاً بالحضارة الحديثة ، وقال : إن حضارتنا لا نظير لها فى الماضى ؛ لأنها وريثة هذه الحضارات جميعاً . . . تذكر أننا أول من فعل هذا . . . وربما بدت هذه الفكرة دارجة لأبناء جيلك ، ولكن لم يحدث من قبل أن ظهرت حضارة ترى أن الإحاطة بمعتقدات مصر والهند والمكسيك أسس ضرورية لمعرفتنا بالإنسان . هذا بالتأكيد هو المرة الأولى . لقد امتد مجال المعرفة إلى مدى بعيد فى دراسة مختلف حضارات البشر ، واكتشفنا فى عالم الفن مجالات عدة ومتنوعة ، واطلعنا على ما لدى هذه الحضارات من مستحدثات والمعانى الجديرة بكل تقدير . . . كان أجدادنا لا يعرفون غير حضارتهم المميزة أى حضارة البحر المتوسط ، ويتصورون باقى الحضارات همجية أما الآن فإننا قد بدأنا نؤمن بوجود تاريخ عالمى واحد ، ونبضات عالمية واحدة .

وبدا ما يقال عن افتقار الحضارة الحديثة إلى القيم فى نظر مالرو ميزة أكبر للحضارة الحديثة التى لم تعد تنظر إلى هذه القيم على أنها قيم على الإطلاق ؛ لأننا لم نعد نقبل أى شىء على علاته . . وبالرغم من أننا نشعر أن حضارتنا تموت أو أننا فى انتظار مولد أخرى فإننا نشعر فى نفس الوقت بأنها أقوى حضارة عرفها العالم . وتصور أيضاً أن هذه الحضارة تتميز على كل ما سبقها بأنها من خلق أناس يعون ذاتهم ويدركون

مسئوليتهم عن أفعالهم ، ولا يلقون اللوم على أى قوى خارجية أو غيبية ؛ فحضارتنا تستمد قوتها من ذاتها ومما سبقها من حضارات ؛ فهى قد أثبتت وحدة البشرية ووحدة التاريخ على نحو لم يسبق له مثيل .

ونحن نؤيد كل انحياز لتيار التفاؤل ولا نتصور أن الحضارة قد انتهت لمجرد حدوث فتور فى الخلق الفنى والأدبى ، أو لاختفاء بعض العباقرة ، وهذا أكبر معيار استند إليه المتشائمون : فالخيال العبقرى الخلاق ما زال موجوداً فى ميادين أخرى ، وهل يصح القول بأن رحلات الفضاء الأخيرة أقل عبقرية واعتماداً على الخيال الخلاق من أوبرات فاجنر ، أو روائع شكسبير ودوستويفسكى أو ميكل أنجلو إن مشكلات حضارتنا لم تعرفها أى حضارة سابقة ، والتوفيق فى حلها – الذى لا يحدث دائماً – يعتمد على جهود مضنية تكفى خلق عشرات الحضارات من الأنواع السابقة . وكل تشاؤم فى المسائل الإنسانية أو تصور لمعرفة الغيب ومعرفة القوانين المتحكمة فى مستقبل الإنسان ينافى الوعى الحضارى السليم . ولعل هذا هو أسوأ ما ترتب على التأثر بمنهج الفكر فى العلوم الفيزيائية التى نجحت فى استحداث قوانين للتنبؤ بالمستقبل ؛ فكل نبوءات المتشائمين تدل على المغالاة ؛ فحضارتنا تعانى من الكثير من المشكلات ، ولكنها لم تمت والعبقريات الخلاقة ما زالت بخير . فكتاب مثل «تدهور الحضارة» لإشبنجلر يدل على عبقرية فذة برغم أنه كتب فى الفترة التى توصف بفترة المدنية أو مرحلة التدهور ، وشخصية البرت شفايتزر المتعددة

الجوانب قلما نصادفها فى أى حضارة سابقة .

فإذا كانت حضارتنا مملوءة بالأمراض – وهناك اختلاف بين مثلنا وأمراضنا – فالعلاج الوحيد فى يد المثقفين ؛ لأنهم صنعوا كل حضارة ، ومسئولون عن المحافظة على تراثها وتنميته . ولم يكن اكتفاء اللغات الأوربية بكلمة واحدة للدلالة على معنى الحضارة ومعنى الثقافة من قبيل المصادفة . وهو لا يدل أيضاً على أن الحضارة مرادفة للثقافة ، ولعله يعنى أن الثقافة هى التى تخلق الحضارة .

الكتاب القادم :

أيامى على الهـــوا — سلوى العنـــانى

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٥٥١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٦ – ٨

٩٤/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

تختلط مفاهيم الحضارة والمدنية والثقافة .
وهذا بحث فى استخلاص المعنى الحقيقى للحضارة
انتهى إليه المؤلف بعد عرض شائق لمعناها القديم
والحديث . . وعلى ضوء النظريات العلمية .
والفكرية المختلفة . . فى الشرق والغرب وعبر
حضارات الشرق القديم وارهاصات العل
الحديث فى دول الغرب من خلال
تحدثوا فى هذا الصدد .

والبحث يستحق أن يوضع
البحوث المبسطة التى تهم
والمتخصص على السواء .

١٠ ج